

الشيعة في الأندلس

الخلافة الحمودية العلوية

د. كاظم شمهود طاهر



مؤسسة الصفاء للمطبوعات
لبنان

دار الكتاب العربي
بغداد

A vertical decorative element featuring a large, stylized, gold-colored letter 'M' with a small floral ornament at the top.

the first time I saw it, I was struck by its beauty and power. It is a symbol that represents the interconnectedness of all things, and it has become a powerful reminder of the importance of living in harmony with the natural world.

A black and white photograph of a man in a dark suit and a bowler hat, holding a dark briefcase. He is standing next to a woman in a light-colored, possibly lace-trimmed, dress. The man is looking towards the camera, while the woman is slightly behind him, looking down. The background is dark and indistinct.

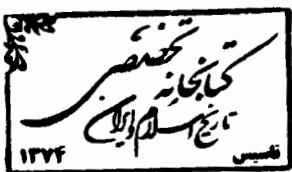
د. كاظم شمود طاهر

- ١٩٧٤ - خريج أكاديمية الفنون الجميلة - فرع الرسم - جامعة بغداد.
- ١٩٧٧ - تخصص في رسوم الأطفال وعمل في مجلة «مجلتي» و«المزار»، كما اشتغل في تلفزيون بغداد لانتاج افلام كارتون.
- ١٩٨١ درس فن الكرافيك (الحفر) لمدة ثلاثة سنوات في كلية الفنون الجميلة - جامعة مدريد، بالإضافة الى دراسة الجداريات والحرف البارز.
- ١٩٨٨ اشتغل في مجلات - ABC و ٢A كرسام لقصص الاطفال والرسوم الفكاهية، كما ساهم في صناعة افلام كارتون في بعض المؤسسات الاسپانية.
- ١٩٩١ دكتوراه في تاريخ الفن الاسلامي - جامعة مدريد المستقلة.



دار الكتب المصرية

بشارع المنشية - تليفون: ٠٢٣٦٣٧٥ - ٠٢٥٤٥٦١



الشیعه فی الأندلس

الخلافة الحمودية العلوية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٠ / ١٤٣١ هـ



دار الكتاب العربي

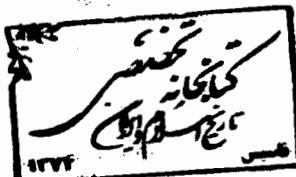
بغداد - شارع المتني

هاتف: ٤١٥٤٥٦٦ - موبايل: ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الشيعة في الأندلس

الخلافة الحمودية العلوية

د. كاظم شمهود طاهر



مؤسسة الثقافة المطبوعات
لبنان

دار الكتاب العربي
بغداد

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
الْحٰمِدُ لِلّٰهِ الْعَظِيْمِ

المحتويات

الأقوام الأولى التي استوطنت شبه الجزيرة.....	٧
الفتح الإسلامي للأندلس ونهاية موسى بن نصير وطارق بن زياد.....	١٣
إيقاف الفتح الإسلامي وفكرة التواطؤ.....	١٩
عصر انتصار الشيعة في العلام الإسلامي	٢٤
دولة الأدارسة العلوية.....	٢٥
الدولة الفاطمية.....	٢٩
بداية التشيع في الأندلس.....	٣٧
تشيع البربر	٣٩
مناطق استقرار البربر	٤١
مناطق استقرار العرب	٤٧
ثورات البربر	٤٩
ثورات الشيعة في الأندلس	٥٣
سقوط الخلافة الاموية	٦٥
الخلافة العلوية في الأندلس (دولة بنى حمود العلوية).....	٦٨
الفكر والادب الشيعي في ظل الدولة الحمودية	٧٧
دولة بنى مناد الصنهاجية	٨٣
الامارات البربرية الشيعية والموالية في جنوب الاندلس	٨٩
الحضارة والفكر الشيعي في الأندلس.....	٩٢
من رواد الفكر الشيعي في الأندلس	٩٥
دولة المرابطون	١١٤
دولة الموحدين	١١٨
الآثار الباقية	١٢٦
العرفاء	١٤٠
مكتبة الاسكريوال	١٤٢
الفن الأندلسي	١٤٣
المصادر	١٤٩

الأقوام الأولى التي استوطنت شبه الجزيرة

كشفت الدراسات العلمية والتنقيبات الحديثة التي أجرتها علماً الآثار في جميع مناطق إسبانيا، بأن الأقوام الأولى التي استوطنت شبه الجزيرة هم الأيبيريون Iberos الذين جاءوا من أفريقيا والذين هم أساس جنس البحر المتوسط، وقد استقروا في الجنوب والجنوب الشرقي منها، ثم أقوام ثيلتاس Celtas والهندو-أوربية الذين عبروا جبال البرت (البرنية) Pirineos واستوطنوا في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة.

ثم جاء الفينيقيون الأوائل من الشرق - وهم من الكنعانيين - الذين سكناً بلاد الشام وسواحلها في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقيل في مصدر آخر في القرن العاشر قبل الميلاد، وبنوا لهم مستعمرات في المناطق الساحلية الشرقية والجنوبية ثم توغلوا إلى الداخل وأسسوا مدنًا كثيرة منها قرطبة وأشبليه وقادش وملقا وغيرها، كما ذكرت بعض المصادر الإسبانية بأن طليطلة قد أنشأها فرقـة عسكرية كانت قادمة من الشرق في زمن ملك بابل نبوخذنصر واستقرت على ضفاف نهر التاجة El Tajo). وبعد الفينيقيون جاء اليونان ثم الرومان الذين قاموا بشق الطرق وبناء الجسور والخصون والمدن وقسموا شبه الجزيرة إلى أربعة ولايات إدارية كبيرة، وعندما جاء العرب أضافوا إليها ولاية خامسة والتي تقع في شمال جبال البرت (البرنية - Pirineos) من أراضي الأفرنج، حيث كانت جنوب فرنسا خاضعة لحكم العرب.

ثم جاء فينيقيو قرطاجنة (تونس) في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد واستقروا في السواحل الشرقية وأنشأوا عدداً من المرافئ والمدن منها مدينة قرطاجنة والتي تسمى اليوم في اللغة الإسبانية (كارتابينا - Cartagena) وكان من أشهر ملوكيهم هانيبال الذي تقدم بجيشه نحو روما عبر إسبانيا مخترقاً جبال البرت (البرنية).

ثم نزلت قبائل القوط الجermanية من الشمال وسيطرت على أملاك الدولة الرومانية

في أوائل القرن الخامس الميلادي، فاقتسمت هذه القبائل أملاك روما الغربية واستولت على إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وكانت إسبانيا من نصيب القوط، ثم جاءت قبائل جرمانية أخرى تسمى الوندال وسيطرت على إسبانيا، وكانت هذه القبائل الجرمانية القوطية والونdale تشارك في العادات والتقاليد والدين مما يشير إلى أنها يرجعان إلى جنس واحد.

ثم عاد القوط مرة أخرى للسيطرة على إسبانيا بعد أن انتزعتها من الوندال في نهاية القرن الخامس الميلادي وقد اعتنقو النصرانية منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، ولبث القوط زهاء قرنين في إسبانيا حتى الفتح الإسلامي.

وذكر بعض المؤرخين بأن شبه الجزيرة كانت تسمى في الأزمان القديمة إيباريه ولكن الرومان أطلقوا عليها اسم إسبانيا (Hispania) ومن هنا جاء اللفظ - إشبارانيه - أو إسبانيه - وفي لغة القرون الوسطى تحول اللفظ إلى Espana ومنه استقت الكلمة الانكليزية Spain. أما مصطلح الأندلس الذي يطلق على الأراضي التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة فقد استقى الجغرافيون والمؤرخون العرب من الأسماء التالية: الأندلسي أو الأندلش أو الأندلس، وهي الأسماء التي اعطيت للوندال الذين سيطروا على إسبانيا قبل القوط الجدد، كما تذكر رواية أخرى بأن (أندلس) مشتقة من (فاندولوسيا) أي بلد الوندال وسميت إسبانيا آنذاك باسم فاندولوسيا، وذكر المؤرخ ضياء باشا وكان وزيراً في الحكومة العثمانية بأن هناك رواية تقول أن كلمة (أندلس) تعني في اللغة الفينيقية مكتوم أطلقها الفينيقيون على كل أرض جديدة يكتشفونها والتي كانوا يحتفظون وحدهم بسرها.

ويذكر صاحب كتاب الروض المعطار الحميري بأن الأندلس كانت تسمى في القديم - أباريه - ويعني ذلك - إيبريه - ثم سمي باطقة ثم سمي إشبارانيا من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندلسيين الذين سكنوها، وهكذا نجد أنفسنا أحياناً أمام روايات كثيرة معظمها يطغى عليه طابع الخرافية وعدم الدقة العلمية، أما بالنسبة للأقوام التي سكنتها فهناك اكتشافات وتنقيبات علمية أثبتت بالقطع من خلال الآثار عن أصل وأسماء الأقوام الأوائل التي سكنتها.

يذكر بأن قرطبة أصلها إيبيري بدليل التماهيل البرونزية الإيبيرية التي كشف عنها البحث الأثري في أرضها بالإضافة إلى أسمها محرف من كردوبا - *Corduba* - وهو اسم إيبيري بحث يتشابه في مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى ثبت أنها إيبيرية مثل سلدويا *Salduba* وهو الاسم القديم الذي كانت تعرف به سرقسطة قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها فيما يقارب من عام ٢٣ ق.م ويسميها قيصر اوجستا الذي عرب بدوره إلى سرقسطة.

إذن قرطبة وسرقسطة هما من أصل إيبيري أسستها الأقوام التي قدمت من شمال أفريقيا أو المشرق. هذا الاستعراض السريع والمؤخر للأقوام التي استوطنت شبه الجزيرة يبين لنا بأن المسلمين كانوا آخر الأقوام التي سكنتها وعمرتها وهم عصارة الحضارة القديمة وثمرة الاختلاط البشري والجنسى من ثلاث واعيبيرو وفينيقين وأغريق ورومان وقوط وعرب وببربر (مسلمين)، كل هذه الأمم ساهمت في بناء صرح حضارة شبه الجزيرة، ولكن مع الأسف هناك من المؤرخين العرب المعاصرين من يقول أن الأسبان قد استرجعوا أراضيهم وطردوا المسلمين منها متأثرين بآراء الغربيين حيث ذلك الرأي الذي يطبع النقد الغربي دائمًا في كثير من المواطن والذي هو ناتج عن نزعة التعصب الدينى والجنسى وهم يسمونه في كتبهم بحرب الاسترداد - *La reconquista* - .ويذكر العلامة والمؤرخ الإسباني التاميرا Altamira في كتابه (*Historia de España y la civilizacion*) (تاريخ إسبانيا والحضارة) بأن الشعب الإسباني كان غالبيته من الرومان والقوط وقد ظلوا في ظل الحكم الإسلامي محتفظين برؤسائهم وهم الأقباط وأساقفتهم وكنايسهم، كما يذكر بأن القوط كانوا أقلية بالنسبة إلى سكان شبه الجزيرة الذي يتكون من الرومان والأسبان الأصليين أي من الأقوام السابقة.

وهذه إشارة إلى أن الأمة الإسبانية كانت خليطاً بشرياً من رومان وقوط جاءوا من مناطق جغرافية بعيدة عن شبه الجزيرة. هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى إن حرب (الاسترداد) ساهمت بها جيوش أوربية بدعم مباشر من الكنيسة، كما أن طرد المسلمين من إسبانيا أو تحويلهم إلى نصارى يتم على يد ملوك نمساويين سيطروا على إسبانيا مثل كارلوس الأول وفيليب الثاني وفيليب الثالث، لهذا فقد عاد الجerman إلى إسبانيا مرة أخرى بعد أن أخرجوا العرب والمسلمين منها.

إذن ما هو معنى حرب (الاسترداد؟)، ومن هم الذين قاموا بها؟، هل هم الرومان والقوط أم سكان البلاد القدامى من فينيقيين وايبيريين وثلاثاس؟. لهذا اعتقاد أن هناك عدم انصاف في تشخيص وتحليل الأمور وهو مع الأسف تأثر المؤرخين العرب والمسلمين المعاصرین بآراء الغربيين الذين تسودهم نزعة التغصّب الديني والجنسی. ولنضرب مثلاً آخر : المعروف أن العرب قد أسسوا مدنًا كثيرة في إسبانيا ومنها مدريد العاصمة الحالية، ولكن المؤرخين الإسبان بقوا قرونًا يدونون في كتبهم بأن مدريد أسسها النصارى، إلى أن جاء المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مطلع القرن العشرين واطلع على المخطوطات العربية ومنها كتاب الروض المغطّار للحميري فنشر مقالة يشير بها إلى أصل مدريد وأن الأمير محمد الأول هو الذي أمر بإنشائها حوالي سنة ٨٧١ ثم نشرت المقالة نفسها في أحدى الصحف الإسبانية في الثلاثينيات وبذلك نسفت فكرة إنشاءها من قبل النصارى والتي كانت سائدة عند الناس عدّة قرون.

الواقع أن العرب والمسلمين هم جزء من التاريخ الإسباني العربي وهم حلقة حضارية متطرورة. فقد كانت جامعات الأندلس منارةً للعلم في أوروبا وكان الملوك الأوربيين يبعثون أبنائهم لدراسة مختلف العلوم والأداب في جامعات قرطبة، كما فعل أحد ملوك إنكلترا عندما أرسل بعثة تتكون من أبناء الأشراف والأمراء الإنكليز إلى قرطبة في زمان الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدراسة العلوم والموسيقى وغيرها.

ولكن النصارى عندما احتلوا إسبانيا وأخرجوا المسلمين منها عمدوا أولاً إلى إحراق المخطوطات العربية كما عمدو إلى إحراق الوثائق التي تشير إلى أملاك المسلمين وأراضيهم وقصورهم ومدنهم وقراهم التي عمروها وشيدوها، وبذلك فقد طمسوا هوية البلاد وضيّعواها فأصبحت وكأنها مجھولة الهوية. ثم سجلوها بأسماء القساوسة والقواد والنبلاء وكأنهم هم أصحابها الأصليين ثم خيروا الناس المسلمين بين التنصير أو القتل أو الهجرة، ويذكر المؤرخون بأن الكاردينال خينث ثيسينيروس قد جمع مئات المخطوطات الإسلامية وقيل نصف مليون في أحدى الساحات في غرناطة وأحرقها، وبذلك ضاعت ثروة علمية تعتبر عصارة الحضارة الإنسانية، ولازال عدد من المخطوطات العربية موجوداً في مكتبة الاسكریوال شمال مدريد تقدر بحوالي ٢٠٠٠ مخطوطة وقد زارت المكتبة واطلعت على بعض هذه المخطوطات والتي تحتوي

على مختلف العلوم، وكانت الاسكريال هي الأخرى تعرضت إلى حريق كبير في سنة ١٦٧١ وذهبت آلاف المخطوطات العربية ولم ينقد منها إلا العدد المذكور سابقاً.

ولازالت ثقافة العرب وتقاليدهم وعاداتهم موجودة في الجنوب الأندلسي ولazالت أسماء المدن والأنهار والقرى والمحصون بأسماها العربية وحتى أسماء وألقاب بعض العوائل الإسبانية، كما يذكر بأن هناك آلاف الكلمات العربية موجودة في اللغة الإسبانية وقد ذكر منها الأستاذ محمود علي مكي في كتابه (مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا).

وفي زمن العرب تألقت الأندلس وأصبحت مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة الإنسانية وموطن الفلسفه والعلماء والشعراء ومركز الفنون والأداب، وكانت أغنى دول أوروبا وأكثرها ثراءً ورخاءً، كما كانت قرطبة في عهد الناصر وأبناءه أكثر مدن أوروبا سكاناً، وقد بلغت في عهد الخلافة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصر التي كانت ترزح في ظلمات الجهل والانحطاط والفقر، وكانت شوارع قرطبة مرصوفة بالحجارة وكانت النفايات تنقلها العربات التي تجرها الثيران خارج المدينة كما كانت شوارعها مضاءة ليلاً.

بينما كانت باريس ولندن شوارعها مملوءة بالوحش والأوساخ وأهلها يسودهم التخلف والفقر، كما كانت المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت في عصور مظلمة تزف بها الحروب والفتنة وتسيطر عليها الخرافات والشعوذة الدينية والأمراض القاتلة وفي سنة ١٣٤٢ انتشر مرض الطاعون في أوروبا وقضى على نصف سكانها حسب المؤرخين الأجانب بينما كانت الأندلس تتمتع بحياة آمنة صحيحة مستقرة ويعود الفضل إلى علماء الطب المسلمين وانتشار المستشفيات في كل بقعة من أرض الأندلس.

ولأجل إخراج أوروبا من هذه الأزمة والمستنقع المتخلّف كان عليهما أن تجيش الجيوش للسيطرة على الأندلس الغنية وإخراج المسلمين منها، لهذا كانت الحرب ضد المسلمين هي في الواقع تعود إلى عوامل اقتصادية مادية بحتة وعوامل نفوذ وسيطرة وسلطة واستعمار وليس للدين المسيحي علاقة بهذه الحروب الدموية القدرة، وهو ما نراه اليوم من سيطرة أمريكا وأوروبا على منابع النفط في الدول العربية وإخضاعها

لإرادتها وسياستها وتأسيس قواعدها العسكرية هناك لتأمين تدفق النفط إليها، كما عمدت إلى جعل الدول العربية سوقاً تجاريًّا لتصدير منتجاتها الصناعية والزراعية والعسكرية وعدم السماح لها بالتطور التكنولوجي والمدني بدليل حرثها المعلنة دون خجل مع إيران المسلمة.

إذن كانت الحرب ضد الأندلس هي حرب اقتصادية وسلطوية كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين والمحليين، فباسم الصليب احتلت الأراضي الأندلسية وشرد وقتل ملايين المسلمين واليهود وباسم الصليب أجبر المسلمين واليهود على التنصير وباسم الصليب منع الأندلسيين من التحدث باللغة العربية والتخلُّ عن تقاليدهم وعاداتهم وأجبروا على تغيير ملابسهم. وباسم الصليب أخذت القصور وصوَر الأراضي والخصوص والمدن وأحرقت المخطوطات العلمية والأدبية والفلسفية كما أحرقت الوثائق التي تبيَّن أملاك المسلمين، ثم سجلت هذه الأراضي والقصور بأسماء القساوسة والقواد والأمراء النصارى.

ويذكر المؤرخون بأن القساوسة أصبحوا بعد احتلال الأندلس من أغنى رجال أوروبا وأكثرهم ثراءً وأبهة ولدينا دليل أثري واضح وهو بلاط الكاردينال خينيث ثيسنيروس الذي لا زال موجودًا في مدريد في الشارع الكبير (CIMayor) ويعود هذا القصر من أفحى القصور في ذلك الوقت، وكان القساوسة في الواقع قواد جيوش وحرب ورجال بطش ودماء قد لبسوا الصليب لإثارة عواطف الناس من البسطاء والقراء.

وما فعله الصليبيون في الأندلس عادوا وفعلوه اليوم في البوسنة والهرسك، فقد شن الصرب حرباً صليبية دموية على مسلمي يوغسلافيا بدأًت من سنة ١٩٩٢ إلى سنة ١٩٩٥ ، وقد نقلت الصحف العالمية هذه المجازر والمذابح الدموية وسط مرأى ومسمع حكومات الدول الأوروبية دون محاولة لإنقاذهما مع العلم أنها قادرة على ذلك.

فقد هُجر وشُرد مليوني شخص وُقتل أكثر من مائة ألف مسلم وأربعين ألف حالة اغتصاب وثلاثين ألف مفقود، هذا ما أعلنته بعض الصحف المعتمدة أما الحقائق المرعبة فلازالت غير معلنة، وأخيراً حصرت البقية الباقيَة في رقعة جغرافية صغيرة تمهدًا لإخراجهم نهائياً من يوغسلافيا، وهو ما فعلوه باخر إمارة أندلسية وهي إمارة غرناطة حيث حاصروها وأخر جوا منها آخر ملوك الأندلس عبد الله الصغير سنة ١٤٩٢ .

الفتح الإسلامي للأندلس

و نهاية موسى بن نصير وطارق بن زياد

يعتبر موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة المسلمين وهو من التابعين، ولد في السنة التاسعة عشر من الهجرة في زمن خلافة عمر بن الخطاب ويقال في وادي القرى في شمال الحجاز، وينتسب إلى بكر بن وائل ولكن يذكر الواقدي والكلبي بأن موسى كان من أرشة من قبيلة بلي، وقيل ينتسب بطريق الولاء إلىبني خنم وأن أباه نصيراً كان من سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر في العراق سنة ١٢ هجرية، وأن أباه كان من حرس معاوية بن أبي سفيان ثم وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فاعتقه.

والى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوروبا في الغرب وقيام دولته فيها، وكان منصبه المهم والأول كان في مصر عندما رافق الخليفة مروان بن الحكم في حملته هناك سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م فقد عينه الأخير مستشاراً وزيراً لأبيه عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر، ونتيجة لكتفائه ومقدراته العالية أُسند إليه عبد الملك بن مروان الإشراف على خراج البصرة ولما ولى الحجاج العراق سنة ٧٥ اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل الأمير عبد العزيز بن مروان صديقه الحميم.

وبقي موسى في مصر مع عبد العزيز بن مروان يتبوأ لديه أعلى مراتب الثقة والنفوذ حتى عين والياً على أفريقيا واستطاع موسى بشجاعته وحسن إدارته ومهارته السيطرة على ثورات البربر وإخمادها ومن ثم سيطر على جميع أنحاء المغرب يساعده في ذلك قادة أكفاء ومحنكين من البربر والعرب ومنهم طارق بن زياد والذي عينه موسى والياً على طنجة ونواحيها.

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر ذلك بعزوته المغرب بكفاءة وشجاعة وبراعة. وقدر موسى مواهبه ومقدراته واختاره لفتح الأندلس. ونزل طارق البقعة الصخرية المقابلة للمغرب والتي أخذت اسمه بعد ذلك أي جبل طارق، في الخامس من رجب

سنة ٩٢ هـ / ٢٧ أبريل سنة ٧١١ م، في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتذكر بعض المصادر أن طارق من أب عربي وأم ببربرية ولكن جلها ترى أنه من أصل ببربي وأنه من قبيلة نفزة البربرية.

وزحف طارق على الأندلس وفتحها ثم تبعه موسى وعبر المضيق وبدأ بإكمال الفتح، ووضع الاثنين خطة لافتتاح ما تبقى من إسبانيا ثم زحفا نحو الشمال ثم انقسموا إلى جيشين أحدهما اتجه نحو الغرب إلى جليقية Galicia بقيادة طارق والآخر نحو الشرق إلى جبال البرنية (أو البرت أو البرتات أو المرات) بقيادة موسى، ويقال أن الاثنين تعاونا في فتح جليقية.

وعندما رأى موسى أن الحصون والمدن النصرانية أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى وأن أهلها أخذوا يطلبون الأمان وأن ملوكها هربوا أو قتلوا دخل مملكة الإفرنج حتى وصل مدينة لوطون -أوليون- وسيطر العرب على جنوب فرنسا وتحصنا بها، وهنا فكر القائد أن يخترق بجيشه أوروبا وأن يصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية، ويقول ابن خلدون: (وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصارى مجاهداً فيهم مستلحاً لهم أن يلحق بدار الخلافة).

وكان من القادة الكبار الذين يرافقون موسى بن نصير حنش بن عبد الله الصناعي وكان من التابعين ويدرك أنه كان من تلاميذ الإمام علي (ع) ومن الذين أخذوا العلوم منه وقد حارب إلى جانبه وكان مواليًا له، وقد اتخذ موسى عوناً وناصحاً ومستشاراً له، وعندما فتحت سرقسطة أبوابها إلى موسى بن نصير دون قتال، قام حنش الصناعي بتأسيس أول مسجد في سرقسطة وهو الجامع الكبير وركز قبلته، وذكر ذلك الخبر ابن الغرقمي في تاريخ علماء الأندلس والحميري في صفة جزيرة الأندلس، والمقربي في - نفح الطيب - .

وبعد أن سيطر موسى على سرقسطة اندفع إلى الشمال أكثر فأعترضه بعض القادة وطلبو منه التريث لأن الجيش تعب وملّ من التقدم إلى عوالم مجهولة غير معروفة بجغرافيتها وأهلها، ويدرك أن حنش الصناعي قد نصح موسى بعدم التقدم أكثر قائلًا له: (أين تذهب تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله،

وأعرض مما فتح الله عليك، ودخل لك إني سمعت من الناس ما لا تسمع، وقد ملوا أيديهم وأحبوا الدعوة).

وقد نقل الخبر ابن قتيبة في (الإمامية والسياسة) ويقال أن موسى ضحك لذلك ثم انصرف حنس الصناعي إلى سرقة سرقة. وتذكر بعض المصادر أنه تولى إدارتها وما حوالها، وتوفي فيها ودفن في مقبرة تسمى القبلة. ولكن موسى أصر على فتح المناطق الشمالية وجليقية الغربية، حتى سيطر جيشه على جميع مناطق إسبانيا ووصل إلى (لُكـ Lugo) في (جليقية Galicia) حيث جاءه رسول الخليفة يحثه على العودة إلى دمشق.

استدعاء موسى وطارق إلى دمشق

بينما كان موسى وطارق يتقدمان بجيشهما العظيم نحو الشمال فاتحين المدن والخصون والقلاء، حتى وصل (خيرون) واتخذها موسى قاعدة لجيشه وعين عليها قائداً بربيراً هو منوسه وقيل أن طارق هو الذي عينه، ثم أصبح هذا القائد يشرف على كل المناطق الشمالية من جبال البرنيه إلى جليقية Galicia في المحيط الأطلسي وفي أثناء ذلك عادا إلى دمشق مغيث الرومي وعلى بن رباح اللخمي وكان من قواد موسى وأخبر الخليفة بالفتح وتفاصيله، وبينما كان موسى في الشمال لإكمال الفتح جاءه رسول الخليفة مغيث الرومي يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، غير أن موسى استطاع إقناع الرومي بأن يمهله قليلاً حتى يتم فتح جليقية ووعلده أن يكون شريكاً في الغنائم فقبل المغيث الرومي ذلك وتقى موسى نحو جليقية ووصل إلى (لُكـ Lugo) وبينما هو في ذلك جاءه رسول ثانٍ من الخليفة يدعى (أبا نصر) يحثه على العودة بأمر من الخليفة، ولم يجد موسى بدًّا من العودة منصرفًا من التغر الأعلى وكان معه طارق بن زياد ورسولاً الخليفة، فوصل طليطلة ثم اتجهوا إلى قرطبة بعد ذلك إلى أشبيلية التي اتخذها المسلمون في باديء الأمر عاصمة للدولة الإسلامية في الأندلس وقد استخلف موسى ابنه عبد العزيز سنة ٥٩ـ هـ. والياب على الأندلس وابنه الأكبر عبد الله على أفريقيا وابنه مروان على طنجة والسوسة.

ثم مضى إلى دمشق عبر مصر ومعه طارق وهو يحملان معهما الغنائم ويجران خلفهما

موكباً طويلاً من قواد المسلمين ورؤساء القوط المغلوبين، ويذكر أن مغيث الرومي كان من أصل بيزنطي وقيل أنه كان مولى عبد الملك بن مروان وكان المغيث يحقد على موسى وطارق ويُسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكانت لوقعته ومساعيه ضد هما أكبر الأثر في استدعاءيهما إلى دمشق، وأحسن موسى بما وراء هذه الدعوة وعرف أن مغيثاً كان قد نقل أخباراً خطأة وخبيثة إلى الخليفة، وذكر بأن الوليد بن عبد الملك كان مريضاً فكتب أخوه سليمان إلى موسى يأمره بالإبطاء رجاءً أن يموت الوليد قبل قدوم موسى، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم فيعظم بذلك مقامه عند الناس، فأبى موسى أن يفعل ذلك وجد في السير حتى وصل دمشق والوليد حي فسلم إليه الأحmas والغنائم والتحف والذخائر، وقد وصل موسى إلى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً سنة ٧١٥م، أي بعد أربع سنوات من الفتح.

وبعد وفاة الوليد أفضت الخلافة إلى سليمان فحقد على موسى وصب عليه غضبه فعزله من أعماله وأقصاه وأدخله السجن وفرض عليه غرامات كبيرة وعظيمة، وقتل ابنه عبد العزيز وإلى الأندلس وأقصى أبناءه الآخرين من الحكم وعاملهم معاملة سيئة جداً واتهم موسى باختلاس مقدادات عظيمة من الأموال والتحف وقضى عليه بردها وبالغ بإهانة موسى وتعذيبه، واستجار موسى بصديقه القديم يزيد بن المهلب من نمرة سليمان فخفف عنه بعض عقوبته ولكنه لم يعيشه عن الغرامة، وتذكر بعض المصادر أن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريميه حتى كان يطوف أحيا العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه وأنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى المؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده سنة ٩٧هـ وقيل ٩٦هـ / ٧١٤م، كما يذكر أن موسى توفي في طريقه إلى الحج، وليس بعيداً أنه قتل من قبل سليمان عندما قتل ابنه عبد العزيز. وكان قد هم سابقاً في قتله لولا وساطة يزيد بن المهلب، وقد تجاوز موسى الشهرين من العمر.

ويذكر أن من الأسباب التي دعت الخليفة إلى استدعاء موسى وطارق إلى دمشق والكف عن توسيع الفتوحات هي خشية الوليد من نزوع موسى إلى الاستقلال بالأندلس وأنه بعيداً عن دمشق، كما أن الأموال والغنائم الكبيرة التي حصل عليها موسى هي الأخرى أصبحت مصدر قلق ولا بد من قدوتها إلى دمشق بأسرع وقت،

كما رأى الوليد أن موسى أخذ يتصرف هناك باستقلالية وانه تخطى سلطة الخلافة، ولكن أكثر المحللين يذكرون بأن الوليد كان خائفاً من أن يفكّر موسى بما عرف من طمعه ودهائه في الاستقلال بذلك الملك.

هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى والتي يغفل عنها غالبية المؤرخين ويهملونها ولا يذكرونها بشكل صريح واضح، وهي أن بعض المؤرخين يذكرون بأن نصيراً والد موسى كان من الذين اعترضوا على معاوية في حربه مع الإمام علي عليهما السلام وأنه خالقه في ذلك وقيل أنه كان مواليًّا للإمام علي عليهما السلام ولكن يكتوم ذلك.

ثم أن من أكبر قادة جيش موسى بن نصير ومستشاريه هو حنش بن عبد الله الصناعي وهو تلميذ الإمام علي عليهما السلام وتعلم على يديه علوم الفقه والحديث ومن الذين حاربوا إلى جانبه ضد معاوية وغيره، كما يعود له الفضل في تأسيس مسجد قرطبة ومسجد البيرة وكذلك مسجد سرقسطة التي ذكرناها سابقاً، هذه كلها تركت هواجس في نفس الوليد وحاشيته من أن موسى قد ينقلب بالأخير مع العلوين ضد الدولة الأموية ويؤسس دولة مستقلة في الأندلس. وكان الحكام الأمويين قد عاملوا موسى بطغيان ودكتاتورية رغم مكانته وفضله الكبير في الفتوحات، لهذا كان موسى غير راضي على سياستهم وحكمهم ويتنمّى الخلاص منهم وانه كان يخفى ولائه للعلويين.

أما طارق بن زياد فيذكر انه انظم إلى المغيث الرومي في اتهام موسى بن نصير بأنه لم يكن عادلاً في تقسيم الغنائم وانه تصرف في حصة بيت المال، ويدرك أن طارق كان في ذلك الموقف يهدف إلى التقرب من سليمان وخوفاً من بطشه، لهذا فكر سليمان بتعيين طارق على الأندلس وطلب نصيحة المغيث الرومي فقال له: (لو أن طارق أمر أهلها بالصلوة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا) وهذا ما أثار مخاوف سليمان وصرف النظر عنه.

ولم تتوفر بعد ذلك معلومات عن حياة طارق بن زياد ولم يحدثنا أحد من المؤرخين عنه بشيء ولا تذكر لنا متى وأين توفي بل سدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت، وهو ما يثير الاستغراب والشكوك، فكيف يعتبر من أعظم قواد التاريخ الإسلامي الذي فتح شبه الجزيرة وأسس دولة الإسلام فيها أن يحمل تاريخه ولا يعرف عنه شيئاً بينما كان التدوين للتاريخ في زمانه في أوج عظمته وتطوره.

إذن يعتقد أن هناك كانت نهاية مأساوية لطارق شبيهة بصاحب موسى بن نصير، وقد فضل المؤرخون الإعراض عنها إما خوفاً من السلطة الأموية أو أن الحادثة مؤلمة جداً وشديدة المأساة بحيث لا تليق بهذا القائد المسلم العظيم أن تذكر، ومن الروايات التي ذكرت وهي غير مؤكدة كثيراً بأن طارق انتهى أعمى يتسلو في قارعة الطريق، وهناك أخرى تقول أنه أصبح عاجزاً وعين له راتباً من بيت المال.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فيعتبر الشخصية الثالثة من حيث إكمال الفتح بعد موسى وطارق وهو من أعظم ولاة الأندلس وله الفضل في تثبيت دعائم السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة واستكمال فتحها واستطاع أن يقضي على الفتنة والثورات فيها، وهو أول من نظم البلاد من الناحية الإدارية وشجع الزواج المختلط، وقد كان مثالاً لذلك حيث تزوج القوطية أم عاصم - ايجلونا - أرملاة لذريلق، ولكن الخليفة سليمان بعد غضبه ومعاقبته موسى بن نصير بعث إلى من يقتل عبد العزيز فقتله وأنهى حياته وبعثوا برأسه إليه.

وهكذا أنهى الأمويون قيادات الفتح الإسلامي في أفريقيا والأندلس نهاية مأساوية وفي متنهى المؤس والذلة حتى أن بعض المؤرخين تجنبوا من ذكرها لأنها فاقت كل التصور الإجرامي وال بشاعة، وكما يقول الجاحظ أن الدولة الأموية دولة عربية إعرابية، بمعنى أن من صفاتها البطش والقتل والنهب والسلب وهتك الحرمات والأعراض فليس لها صديق ولا تحترم قيادتها إنما هما السلطة والمالي فقط.

وهذا جدهم أبو سفيان حيث يذكره ابن عبد ربه في سوء في كتابه (العقد الفريد) وينقل رواية نقلها غيره من المؤرخين وهي: عندما اجتمع أبو سفيان مع عثمان بن عفان وكان أعمى فقال تلاقفواها يابني أمية (ويعني الخلافة) كالكرة فوالذي يعتقد به أبو سفيان ليس هناك جنة ولا نار.

إيقاف الفتح وفكرة التواطؤ

وكان موسى بن نصیر يعتبر واحداً من قواد المسلمين العظام فكان شجاعاً وذكياً وداهية في الحروب وحكيماً ومحظطاً وجريئاً، وكان له شخصية عالية بحيث أطاعتة العرب والبربر، وكان فوق مواهبه العسكرية هذه غزير العلم والأدب.

وعندما وصل إلى جبال البرانت أو البرنيه Prinieos على الحدود الفرنسية كان يتطلع إلى غزو أوروبا وفتحها والوصول إلى دمشق عن طريق قسطنطينية، وكانت فيالقه العسكرية تتقدم متتصرة في كل موقعة، ترحب شملاً وغرباً وشرقاً دون هواة، بالإضافة إلى الغنائم التي حصل عليها والتي لا تعد ولا تحصى، ولكن عندما وصلت الأخبار إلى الخليفة الوليد في دمشق عن انتصارات المسلمين في إسبانيا ووصولهم إلى حدود الأفونج والغنائم الكبيرة التي حصلوا عليها، فقد حدثت مفاجئة وهي إيقاف الفتح واستدعاء موسى بن نصیر وطارق بن زياد إلى دمشق.

هنا يقف المحللون على (فكرة المؤامرة). لماذا إيقاف الفتح؟

ولماذا استدعاء موسى بن نصیر وطارق بن زياد إلى دمشق في هذه اللحظات الحرجة والخاسمة من الحرب؟. ومنع موسى من تنفيذ مشروعه الضخم وحيث كان الإسلام في ذروة الفتوى والقوة والباس وكانت جيوشه تقتتحم العالم القديم ظافرة أيّها حلّت؟.

يذكر بعض المؤرخين بأن الوليد بن عبد الملك كان حريصاً على سلامه ووحدة المسلمين وقد وصلته أخبار خلاف وقع بين موسى وطارق. بينما آخرين يؤكدون بأن الوليد بلغه كثرة الغنائم وعظمها وخوفه من أن تذهب وتتبدد وتسرق. ولكن هناك من يحلل الموقف تحليل معاصر فيوز السبب إلى أن الوليد كان خائفاً من أن يفكر موسى بالاستقلال في الأندلس بما عرف عنه من طمع ودهاء، كما أن البربر كانوا يشكلون غالبية الجيش الإسلامي وكانوا يكرهون العرب خاصةً الحزب الأموي العنصري وأنه ليس بعيداً أن يشجعوا موسى على الاستقلال بالأندلس.

ومن جهة أخرى إن يزيد بن المهلب عندما استجار به موسى من غضب سليمان

وسخطه عليه، عاتبه وإشارات إلى أنه لو بقي في الأندلس وتحصن بها كان خيراً له من المجيء إلىبني أمية قائلاً: لم أزل أسمع عنك بأنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعبه واستخلفت بلاً أنت اخترتها وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما لقيت عنك في يد من لا يرحمك).

هذه المهاجمة التي كانت تتباهى الخلافة الأموية وكذلك القواد من أن موسى إذا لم يستدعى الآن وبهذه اللحظة والسرعة قبل إتمام الفتح وتنظيم الإدارة في إسبانيا سيكون لا محالة خارجاً عن الخلافة وبالتالي يصعب مواجهته حيث يملك من الجيش القوي والأموال الوفيرة ما يكفي لصد أي هجوم أموي قوي يتوقع. لهذا فإن ظروف وشروط الاستقلال متوفرة، يضاف إلى ذلك وجود قواد شديدي البأس عرفاء بمكائد الحرب وإدارتها من البربر والشيعة العرب أمثال طارق بن زياد ومحمد بن الياس المغيلي وحنش بن عبد الله الصناعي وعبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ومنوسه البريري الذي تولى فيما بعد حكم المقاطعة الشمالية من جبال البرنيه شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وغيرهم، كما أن موسى يغضض الحزب الأموي الحاكم خفية وكان أبوه نصيراً من المعارضين على معاوية في حربه ضد الإمام علي عليه السلام حسب ما يذكره بعض المؤرخين.

أما التفسير الآخر لإيقاف الفتح من قبل بعض المحللين هو أن أوربا كانت في ذلك الوقت تمزقها الحروب والشعودة الدينية والتناحر وكانت مفككة وضعيفة أمام قوة الجيوش الإسلامية الفتية التي كانت في أوج عنفوانها وعظمتها وقوتها وجبروتها، وفيما لو تقدم موسى نحو أوروبا لاحتلها ولتمكن من الوصول إلى دمشق، لهذا فهناك ضغوطاً مورست من قبل ملوك أوروبا والكنيسة عن طريق عمالءهم وأصدقائهم في داخل الخلافة الأموية خاصةً الذين لهم أصول بيزنطية ومسيحية، أمثال مغيث الرومي وكان مغيث أحد قواد موسى ويقال أنه من أصل بيزنطي من شمال أفريقيا وكان نصراانياً، ثم اسلم وكان في خلاف شديد مع موسى بن نصير ونقل أخبار سيئة ومشوهة عن الفتح وموسى والغانم إلى الوليد وقد أحسن موسى بأن مغيث قد وشي به.

وقد زين مغيث للوليد كثرة الغنائم والكنوز التي حصل عليها موسى من الذهب

والفضة والنفائس الأخرى التي لا تقدر بثمن والتي تعد بالآلاف منها تيجان الملوك وطاولة سليمان الذهبية وغيرها، يضاف إلى ذلك الجواري ونساء الملوك والأمراء التي يضرب المثل في حسنهن وجماهنهن.

هذه الغنائم الكبيرة والعظيمة يضاف إلى الخوف من استقلال موسى من المحتمل استخدمت كوسائل ضغط على الخليفة الوليد لإيقاف الفتح بأسرع ما يمكن واستدعاء موسى وطارق إلى دمشق وبالتالي عدم التفكير في غزو أوربا، وكانت هذه الغنائم الكبيرة سبباً في معاقبة موسى وزوجه في السجن من قبل سليمان، واحتياط تدبير قتله عندما كان في طريقه إلى الحج. هذه الدعوة تذكرنا بما فعله المنصور العباسى عندما استدعى أبو مسلم الخراسانى إلى بغداد بعد ما أخذ الأخير تمراً كبيراً في بلاد الشام ضد الدولة العباسية، فكان المنصور قد بعث إليه رسولاً أثناء مروره في شمال العراق عائداً إلى خراسان يستدعيه إلى الحضور إلى بغداد ولكن الخراسانى أحس بخبيث الدعوة وما تنتوي عليه من غدر فتظاهر بالمرض، ثم بعث إليه المنصور رسولاً آخر وزين له هذا الرسول شوق المنصور إليه واحترامه، فأقنعه وقدم أبو مسلم الخراسانى إلى بغداد، وكانت النتيجة هي قتله شر قتلة في بلاط المنصور، وقد نقل المؤرخون هذه الحادثة المؤلمة بالتفاصيل والدقة وكيف انهال عليه الحراس بالخناجر أمام أعين المنصور الدوانيقي.

وكان أبو مسلم من أعظم القواد في العصر العباسى وعليه قامت الدعوة العباسية وسقطت الدولة الأموية، وقد علا شأنه وعظمت مكانته بين الناس فخشى المنصور منه ومن سلطانه وخوفاً من أن يتحصن ويستقل في خراسان ويتنزع الشيعة الذين نكث بهم بنو العباس. ومن المعروف أن الدعوة العباسية قامت باسم الشيعة وكوادر الدعاة الشيعة وبعساكر الشيعة التي كانت تغلي ثورة وسخطاً علىبني أمية الذين نصبوا العداء لأهل البيت وقتلوا أئمتهم، وكانت حادثة الطف ومقتل الحسين عليه السلام على يد يزيد بن معاوية كانت سبباً كافياً لغضب الأمة الإسلامية علىبني أمية.

ولبث الدعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ويضعون لها الأصول والقواعد ويحشدون لها الصحابة والأنصار فيسائر النواحي، وكانت تلقى في الخفاء تأييداً كبيراً، وكان أبو مسلم الخراسانى رجل الموقف يدبر الخطط بقوة وبراعة فقاد

أنصاره واشتباك في معارك طاحنة مع قوات بنو أمية وهزمهم في مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيها لواء الشيعة الأسود.

وكانت آخر معركة للشيعة مع قوات بنى أمية كانت في الحادى عشر من جمادى الثاني سنة ١٣٢ هـ / ٢٥ يناير ٧٥٠ م وقد وقعت المعركة على ضفاف نهر الزاب وهو فرع من دجلة جنوب شرق الموصل، وكان عدد الشيعة يبلغ زهاء عشرين ألفاً (بحسب الدكتور عبد الله عنان) بقيادة أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، وكان عدد قوات الجيش الأموي زهاء مائة وعشرين ألفاً بقيادة مروان ابن محمد أو مروان الثاني آخر خلفاء بنى أمية، ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة، وتعاقب الظفر يذكي عزائمهم ويضاعف قواهم، وكان الجيش الأموي على ضيخته قد خبت عزائمها واحتلت صفوه وغاصت قواه المعنوية، ونشبت بينهم معركة شديدة حاسمة انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه وغرق في النهر آلاف من جند الشام وعد من زعماءه وقادته واستولى الشيعة على أسلابه وفر مروان في فل من أصحابه إلى الشام ثم إلى مصر وتعقبه جيش الشيعة حتى حاصره في قرية بوصير على مقربة من الجيزة وهناك مزقت البقية الباقيه من بنى أمية وقتل مروان آخر خلفاء الأمويين في المشرق.

وكان الفضل في انهيار دعائم الدولة الأموية يعود إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعني به أبو مسلم الخراساني، وكانت دعوة الشيعة وإمامتها أهل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه، ولم تمض أعوام حتى قتل المنصور أبو مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ ثم تتبع زعماء الشيعة وولد علي بن أبي طالب بالقبض والمطاردة حتى مزقوا شملهم وسحقوا دعوتهم، ثم استخلص بنو العباس تراث بنو أمية لأنفسهم وبذلك قامت الدولة العباسية.

ويذكر بأن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : إن ما فعلته بنو أمية مع العلوين وأهل البيت لم يعد معشار ما فعله بنو العباس . ولنعد الآن قليلاً على موسى بن نصير وإلى إيقاف الفتح، حيث يذكر المؤرخون بأن إيقاف الفتح ترك هناك شرذمة صغيرة من النصارى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية Galicia وكان قائدتهم يدعى بيلابو Pelayo وقد نمت وقويت هذه الشرذمة بعد إيقاف الفتح وبمرور

الزمن كونت لنفسها مملكة نصرانية صغيرة في هذه المناطق الجبلية الشمالية الوعرة. وبعد قرون أخذت هذه الدولة الصغيرة توسع وتغزو المناطق الإسلامية وأصبحت مصدر قلق وخطر، كما أخذت تغري الشباب النصراني المستوطنين في المدن الإسلامية بالهجرة إلى الشمال والانضمام إلى جيش النصارى وتغريهم أما بالأموال أو بالتهديد، وهكذا قوت شوكة هذه الدولة. وكانت الحصيلة النهائية هي أنها أسقطت دولة الإسلام في الأندلس بعد ثمانية قرون من حكم المسلمين في شبه الجزيرة الليبية.

إذن إيقاف الفتح كانت له نتائج سلبية قاتلة ومدمرة على الأمة الإسلامية في الأندلس وعلى قتل وتشريد القيادات الإسلامية وتنزيقها من ناحية ثم خلق الفتنة والاضطرابات بين العرب والبربر بسبب عدم الإنصاف في توزيع الأراضي والمدن والثروات، أما النتائج الأخرى لهذه السياسة العرجاء هي إسقاط الدولة الأموية في المشرق سنة ١٣٢ وقيام الدولة العباسية ثم إسقاط الدولة الأموية في الأندلس على يدبني حمود العلويين الشيعة سنة ٤٠٧ م.

عصر انتصار الشيعة في العالم الإسلامي

في نهاية القرن الثاني الهجري شهد العالم الإسلامي مذًّا شيعياً جارفاً فقد نجح الأدارسة في تكوين دولة علوية في المغرب الأقصى سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م، وسيطر أبناء إدريس على معظم بلاد المغرب وعبروا إلى بلاد الأندلس ونشروا التشيع، ونجح الفاطميون الشيعة بإعلان الخلافة الفاطمية في أفريقيا سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٨ م، بعد نشاط سري دام أكثر من مائة وخمسون سنة.

ونجح الزيديون الشيعة في إقامة دولة حاكمة في طبرستان سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م، وفي اليمن سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م، واستولى القرامطة على جنوب العراق والبحرين والأحساء ولم يمضي نحو ثلاثون عاماً على انتصار الفاطميون إلا وظهر جلياً انهيار سلطة الخلافة العباسية، عندما نجح البوهيميون الشيعة في فرض سيطرتهم على بغداد وجهر الأذان بـ(حيَّ على خير العمل) كما أقيمت مآتم عاشوراء وذكرى مقتل الحسين عليهما السلام لأول مرة في بغداد.

كما ظهرت دولة بنو هود العلوية الحسينية في الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية وسيطرت على جنوب الأندلس سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، وتشيع البربر وظهرت إماراتهم مثل إمارة غرناطة وكانت غالبيتهم من قبيلة صنهاجة والتي كانت قد بايعت الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ثم عبرت إلى الأندلس خاصةً في زمن المنصور حيث اعتمد عليهم في حكمه وفرض زرهم الخاص على رجال الدولة. وسنأتي على ذكر ذلك تفصيلاً.

وجاء انتصار الشيعة في العالم الإسلامي بعد ما بدأ الضعف يدب في أوصال الخلافة العباسية السنوية حيث أخذت في التفكك إلى دول صغيرة و خاصةً ابتداءً من الخليفة الرضي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٢٩ م، فقد انفصلت الأقاليم الشرقية والغربية عن الخلافة بينما أخذت بقية الممتلكات العباسية تستقل تدريجياً عن سيطرة الخلافة المركزية.

ورغم هذا المد والانتصار الشيعي الكبير والذي سيطر على القسم الأكبر من العالم الإسلامي واستمر عدة قرون فإن هذه الدول لم تجد مجالاً للتعاون والاتحاد فيما بينها

مع أنها على مذهب واحد وخط وحب آل البيت، ويعتقد أن ذلك يعود إلى مصالح إقليمية وشخصية، ومع ذلك فإن هذا الانتصار أحدث رجّة في العالم الإسلامي نحو التجديد والإصلاح خاصةً في مجال الفقه والأدب والعلم والشعر وال عمران وما تركه الفاطميون اليوم في مصر شاهداً على ذلك.

دولة الأدارسة الحسينية

الاضطراب السياسي والاجتماعي الذي تفجر في أكثر مراكز العالم الإسلامي بعد حادثة الطف مباشرةً كان سبباً في التعجيل بسقوط الدولة الأموية، وقيام دولة بنى العباس التي أخذت نفس المنحى الأموي الاستبدادي ونفس السياسة الضالة، وكانت أكثر بطشاً وإرهاباً للمعارضين ولأهل البيت عليه السلام وأنصارهم.

لهذا كانت هناك انتفاضات وثورات عديدة قام بها العلويون وأنصارهم ضد الأمويين والعباسيين، قامت في الحجاز والشام والعراق وغيرها، وكانت أكثر الثورات دموية ووحشية بعد مأساة كربلاء هي ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، والتي وقعت في مكة والمدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م، حيث بُويع الحسين بالخلافة في المدينة وأقام بها (١١) يوماً ثم سار إلى مكة فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة سليمان بن المنصور في منطقة تسمى (فح) على بعد نحو ستة أميال عن مكة، وانتهت المعركة بهزيمة العلويين وقتل الحسين ومعظم أهله وأصحابه وقطعت رؤوسهم ومُثل بعضهم، وكانت دموية ووحشية حتى أن بعض المؤرخين يصفها بأنها تشبه حادثة الطف. ويدرك بأن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه كان خارج مكة مع بعض أصحابه ولما وصل -فح- نزل وصل ركعتين، فسألته أصحابه عن السبب فقال (نزل على جبريل عليه السلام وأخبرني بأن في هذا المكان يقتل أحد أبنائي مدافعاً عن الإسلام وحرمه).

وكان مع الحسين في معركة (فح) عمّاه إدريس بن عبد الله بن الحسن ويجيبي، وقد نجح إدريس في الإفلات مع المنهزمين من بنى حسن وبقي متخفياً فترة من الزمن ثم قرر الذهاب إلى المغرب عن طريق مصر، وعندما نزل مصر كان يوم ذاك على بریدها واضح مولى صالح بن منصور وكان شيعياً محباً لأهل البيت، فعلم بقدوم إدريس

إلى مصر فجاءه إلى المكان الذي يتخفي فيه، وساعدته على الفرار إلى المغرب وكان معه مولاه راشد فنزل بـ(وليبي) من أعمال طنجة وكان ذلك في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م.

فنزل على إسحاق بن عبد الله الأوربي أمير أوربة وكثيرهم، فأجاره وأكرمه وأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته العلوية ومظلومية أهل البيت وحقهم في الخلافة، وتمكن بفضل فصاحة لسانه وعلمه من التأثير في نفوس البربر خاصةً لما عرّفوا أنه أحد أبناء رسول الله ﷺ فاجتمع عليه قبائل:

- أوربة.
- بغيلة.
- صدينة.
- زناته وفروعها (زواوة - لواته - سراته - نفزة - مكناسة وغمارة).

وقد بايعوه بالإمامية ثم تمكن إدريس من تأليف جيش كبير من البربر استطاع به من فتح كثير من الحصون والمدن خاصة المناطق الجنوبية من المغرب التي لا زالت تدين بالوثنية ونشر دعوته العلوية هناك، ثم رجع إلى مقره في (وليبي) سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨، بعد ذلك قام بعدة غزوات ففتح بها عدة مدن وحصون منها تلمسان حيث بايعه فيها قبائل البربر وبني فيها مسجداً، ثم عاد إلى (وليبي) سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩، وبذلك تم تأسيس دولة الأدارسة العلوية.

ولما سيطر إدريس على بلاد المغرب وبايعه أهلها خاصة البربر وعظم شأنه خافه هارون الرشيد وفكّر بالقضاء عليه فاستشار وزيره وصديقه الحميم يحيى بن خالد البرمكي، فأشار عليه أن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوفّر فيه صفات الذكاء وال默ّ، وأخيراً وقع الاختيار على سليمان بن جرير ويعرف بالشّمّاخ وأعطاه قارورة فيها عطر مسموم، فسار الشّمّاخ إلى المغرب واتصل بإدريس وأصبح من ندماءه وفي ذات يوم جلس بين يدي إدريس على عادته فتحدثت معه ملياً ثم قال له: يا سيدِي جعلتُ فداك إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ثم أني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني، فخذها تتطيب بها، فأخذها إدريس وشمها وكانت القارورة مسمومة فأدت إلى قتله، فركب الشّمّاخ فرسه، فلما علم به راشد ركب فرسه

ولحق به ولكنه أفلت منه، ودُفن إدريس خارج (وليلي) وأصبح اليوم مزاراً للمغاربة يتبركون بتربيته.

ونُحب أن نقف هنا قليلاً على جماعة البرامكة، فهم جماعة استقدمهم هارون الرشيد من بلاد فارس ليكونوا في بطانته وحرسه الخاص ويمرور الوقت أصبحوا مستشاريه وزراءه، ثم سيطروا على جميع شؤون الدولة ولكن سرعان ما تدور الدائرة على هؤلاء ويُتهمون بالخيانة والفساد الأخلاقي والاستئثار بالسلطة والأموال، ومنها اكتشاف هارون الرشيد علاقة لاخته العباسة مع يحيى البرمكي، كل ذلك أدى إلى قتل يحيى البرمكي مع عدد من أنصاره وطرد البرامكة وهو ما يسميه المؤرخون بـ(نكبة البرامكة)، وهكذا دفع يحيى ثمن فساده ومؤامراته ضد العلوين و منهم

إدريس بن الحسن عليه السلام.

توفي إدريس بن عبد الله مسموماً دون ولد ولكنه ترك جارية له من أصل بربري اسمها كنزة حاملة في السابع من أشهر حملها، فجمع راشد قبائل البربر وذكر لهم من أمر هذه الجارية فقالوا له: أهيا الشیخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فيما حتى تضع الجارية، فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزة في ربيع الآخر سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م، غلاماً سُمي باسم أبيه إدريس، ولما بلغ الغلام عشرة سنوات جددت له البيعة على يد راشد في جامع وليلي في غرة ربيع الأول سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م، ثم استقام الأمر لإدريس بـ(فاس) واتخذها مركزاً للدولته وقام بعدة غزوات وأخذ البيعة من كثير من قبائل البربر وامتدت دولته العلوية فشملت معظم مناطق المغرب وهددت نفوذ الدولة العباسية في أفريقيا. توفي إدريس سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م، ويقال أنه مات مسموماً بحبة عنب وكانت من تدبير وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغربي.

ثم تولى الإمامة محمد بعهد من أبيه إدريس وأوصته جدته كنزة بأن يشرك إخوته معه في حكم الدولة، فولى أخيه القاسم سبتة وطنجة، وقلعة حجر النسر وبسكرة وتطوان وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل، واختص أخاه عمر ببلاد صنهاجة، وولي داود بلاد هوارة وعبد الله أغمات وجبال المصامدة ويحيى أصلاً (أصيلاً) والعرايش، وحمزة على وليلي وأعماها، وأحمد مكناسة وتادلا وأبقى تلمسانة لابن عمه سليمان بن عبد الله، أما الباقون فقد أبقاهم في كفالة جدته كنزة لصغر أعمارهم

عن الولاية، أما هو فاكتفى بحاضره فاس... وهكذا سيطر أولاد إدريس على غالبية مناطق المغرب الأقصى وحكموا باسم الأدارسة العلوين، ولكن هذه السياسة لم تدم طويلاً فقد أدت إلى انتشار الفتنة والصراعات بين الأخوة ومن ثم تمزق ملوكهم خاصة بعد وفاة محمد بن إدريس والذي أوصى بالإمامية إلى ابنه علي الملقب بـ(حيدره) ومن بعد أخيه يحيى بن محمد.

ويذكر أنه في عهد يحيى بن محمد ازدهرت الحياة العمرانية في فاس، وفي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري المسجد الجامع بعذوه القرويين بفاس وهكذا.... وفي آخر عهد الأدارسة حصلت فتن كثيرة أدت إلى إقتتال الأخوة وأبناء العم فيما بينهم على الإمامة وسلطة الولايات، ثم انقسمت دولة الأدارسة إلى إمارات علوية بلغ عددها تسعه إمارات حسب ما يذكره الجغرافي اليعقوبي والذي زار المنطقة بين أعوام ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م و ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م، وبقيت هذه الإمارات إلى قيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا، وقد أثرت هذه الإمارات البربرية على أبناء عمومتهم في الأندلس من البربر فانتشر التشيع هناك وسنرى في المستقبل كيف أن أحفاد الأدارسة عبروا إلى الأندلس وكونوا لهم دولة علوية هي دولةبني حمود سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، وحيث سيطرت على معظم المناطق الجنوية في الأندلس.

الدولة الفاطمية

كان التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعصبية العربية فكما اعتمد في المشرق على الموالي من الفرس، اعتمد في الغرب على الموالي من البربر، وكان البربر يشكلون الغالبية السكانية العظمى في شمال أفريقيا و كانوا يبغضون العرب لاستئثارهم بالسلطة والأراضي الخصبة، وسنأتي على شرح أسباب ذلك تفصيلاً في موقع آخر من هذا الكتاب.

لهذا كان شمال أفريقيا أرض خصبة لانتشار التشيع وحب أهل البيت حيث قامت فيه أسرة شيعية من الفرع الحسني أسست سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٨ م دولة الأدارسة كما ذكرنا ذلك سابقاً، وكان المركز الآخر الخصب للدعوة الشيعية هو اليمن وذلك بعدها عن دار الخلافة العباسية ومناعتتها الطبيعية وكذلك قربها من الحجاز مجمع الحجاج.

وكان القائم بالدعوة الشيعية في اليمن رجل من الكوفة يسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الملقب بالمنصور لانتصاره على والي العباسيين في اليمن، كما يذكره البعض بأنه يسمى (أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان النجاشي الكوفي) ومعه رجل آخر من الدعاة يسمى أبو الحسن علي بن الفضل الجيشاني.

وأهم المصادر التي تتحدث عن ابن حوشب هو رسالة (افتتاح الدعوة) للقاضي النعمان الذي ذكر بأن ابن حوشب كان في بداية أمره على مذهب الاثني عشرية ثم انتقل إلى المذهب الإسماعيلي، واعتبر القاضي النعمان بأن اليمن أصل الدعوة ومنها انتقلت إلى شمال أفريقيا، وقد كان فرار العلوين من الشرق هرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له هناك من الأمويين والعباسيين، كانوا تقريباً من فرع الحسن بن علي عليه السلام الذين لوحقاً من قبل العباسيين دون هوادة.

وقد تكون هؤلاء العلوين من التمرکز في الشمال الأفريقي في الأراضي التي ضعفت فيها سلطة الخليفة العباسي ومثلية وفي القبائل البربرية التي مالت إلى التشيع،

وتذكر بعض المصادر بأن المذهب الشيعي دخل أفريقيا بصورة أكثر سرية وتنظيمًا قبل وصول الداعي الاسماعيلي أبي عبد الله الشيعي، فقد وصل أول تسلل شيعي في أواسط القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أي قبل نحو ١٣٥ سنة قبل وصول أبي عبد الله الشيعي إلى هناك.

كما تذكر بأن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أرسل داعين للمغرب هما الحلواني وأبا سفيان وقال لهم: (بالمغرب أرض بور فاذها واحرثا حتى يجيء صاحب البذر) فنزل أحدهما في بلدة مراغة والآخر في بلدة سوف جمار من أرض كتامة، فانتشرت الدعوة الشيعية في هذه التواحي، وقد ذكر هذه الروايات ابن خلدون في كتابه (تاريخ ابن خلدون) والقاضي النعمان في كتابه (افتتاح الدعوة) وكذلك ابن الأثير ولكن بشكل مقتضب.

كما يذكر بن الحلواني وأبا سفيان كانوا تلمذين للإمام جعفر الصادق عليه السلام ولم يقوما بالدعوة بالمصطلح الاسماعيلي وإنما قاما بشيء مختلف وابسط من ذلك بكثير في نشرهم محبة أهل البيت وفضلهم وفقههم، وقد تشيع الكثير من البربر على أيديهما، لهذا فيكون أبو سفيان والحلواني هما رائدين بهذا المعنى وهيئا التربة الخصبة للدعوة الاسماعيلية.

وقد عهد ابن حوشب إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب، فخرج عبد الله إلى مكة وهناك التقى بجماعة من أهل كتامة فتحدث معهم وكان لفصاحته وغزارة علمه أثر كبير في سلب عقوتهم، فلما أرادوا العودة سأله عن مقصدته فادعى أنه يود الذهاب إلى مصر ليعلم بها فأشاروا إليه بأن يصحبهم على بلادهم فوافق على ذلك.

ووصل إلى أرض؟ - كتامة في بلاد المغرب في ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ / ٩٠٠م، ولما استقر أمره أخذ ينشر دعوته ومذهبة فكانت قبيلة - كتامة - أول قبيلة بربرية ينشر بين أهلها التشيع، وقد كون عبد الله جيشاً قوياً من أبناء كتامة استطاع به أن ينتصر على دولة الأغالبة الرستمية ثم أخذ يستولي على المدن والمحصون ويوسع من رقعة دولته وكانت انتصاراته متتالية وسريعة وكانت جيوش البربر من كتامة وغيرها قد حصلت على غنائم كثيرة من ذهب وحرير وسروج فضة وأموال طائلة.

وتذكر المصادر بأن أبي عبد الله الشيعي كان يخبر أصحابه بأن هناك رجل من أهل البيت يسمى عبد الله المهدى سوف يأتي من المشرق وينشر العدل ويرفع الجور والظلم من هذه البلاد، وبعد الانتصارات والفتحات الشيعية التي حققها عبد الله بعث إلى عبد الله المهدى يخبره بالقدوم وكان في سلامة من أرض حمص، وتنكر المهدى بزى تاجر وقدم مصر ثم رحل عنها إلى القىروان ثم قسطنطينة ثم إلى سلجماسة حيث يوجد أبي عبد الله الشيعي، وأقام الإثنان فيها أربعين يوماً ثم رحلا إلى القىروان فوصل إلى رقاده في ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩، وهناك خرج أهل القىروان لاستقباله وسألوه تجديد الأمان لهم ففعل.

وبذلك أعلن قيام الدولة الفاطمية في ٢١ ربيع الأول سنة ٢٩٧ هجرية الموافق ٥ يناير سنة ٩١٠ ميلادية، ومثلما تخلص العباسيون من رواد ومؤسسى الدعوة العباسية الذين كانوا من شيعة أهل البيت أمثال أبو مسلم الخراساني مؤسس دولتهم، تخلص عبد الله المهدى من داعيته الرئيسي أبي عبد الله الشيعي الذي مهد له الطريق في أفريقيا فقتله، وهو الذي أثار غضب واستياء الكتاميين بعض الوقت ضد المهدى، وهذه الحوادث نراها مع الأسف تتكرر في كثير من الثورات الشعبية حيث يختطف شهارها آخرين بداعي الأنانية والمصالح الشخصية والفئوية، وخاصة في بلداننا العربية.

وبعد ما استقر الوضع للمهدى فكر في بناء مدينة جديدة حصينة تكون مركزاً للخلافة وأمناً للفاطميين كما عبر عنه المهدى حينما انتهى من بناء المدينة قال (أمن اليوم الفواطم) وسميت المدينة الجديدة بالمهدية، وكانت مدينة - رقاده - بوقوعها في وسط سهل فسيح عرضه للغزو من كل جانب لهذا اختيار هذا المكان الذي يقع على البحر وتم بناء المهدية وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م، وعمرت بالأسواق والمساجد والأراضي.

وكان المهدى يفكر في فتح مصر أو الأندلس وذلك لوفرة ثرواتها ولأهمية كل واحدة منها في تكوين الدولة الإسلامية الكبرى التي يطمح الوصول إليها، لهذا بدأ يجس النبض بإرسال العيون إلى الأندلس وذلك لدراسة أحوالها الاجتماعية والسياسية ومناطق الضعف والقوة فيها، ومن هؤلاء العيون (أبو اليسر العالم الرياضي المتوفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م، وابن هارون البغدادي، وابن حوقل النصبي المتوفى سنة

٩٧٧هـ/٣٦٧م، وهذا الأخير يعتبر من أكبر جواسيس الدولة الفاطمية الذي دخل الأندلس للتعرف على أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وال عمرانية والعسكرية.

ورغم تكثيف الجهود إلا أن الفاطميين لم يفلحوا كثيراً في دعایتهم وجلب الأنصار لهم من الأندلسيين وذلك لرسوخ المذهب المالكي في هذه الديار وكذلك لتهيئ الأمويين في الأندلس لصد طموحات الفاطميين، وقد حدثت رسائل متباينة ودعم للثوار الذين خرجوا على الدولة الأموية في الأندلس من قبل الفاطميين مثل الثائر ابن حفصون وابن القط وغيرهم، وسنأتي على ذكر هذه الثورات في مكان آخر من هذا الكتاب.

وقد تأثر بالدعوة الفاطمية كثير من المفكرين الأندلسيين منهم ابن أبي المنظور الذي ولى القضاء لإسماعيل المنصور (٣٣٤هـ - ٩٤٥م) والشاعر الأبييري ابن هاني الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، الذي طرد من الأندلس بعد ما كشف ميوله للفاطميين ومنهم القائد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي الذي قدم إلى المغرب واتصل بالمهدى وابنه من بعده، ثم عهد إليه ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م.

ولما علم الأمويون بمطامع الفاطميين في الأندلس، استنفروا قواهم وانتبهوا للخطوات التي يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبياً وعسكرياً على الأندلس، ويدرك ابن خلدون بأن عبد الرحمن بن محمد الأموي (...وضبط البحر ونظر في أساطيله واستكثر منها ومنع ابن حفصون من البحر...) ويعتقد أنه قام بتوزيع الأساطيل على السواحل الجنوبيّة الشرقيّة من الأندلس لمنع الإمدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الثائر على الخلافة الأموية، خاصة وأن ابن حفصون كان قد أرسل بيته إلى المهدى وأخذ يدعوه في منطقة نفوذه بالأندلس.

ثم حدثت معارك طاحنة بين الفاطميين والدولة الأموية في الأندلس خاصة عبر البحر ومن خلال مهاجمة السواحل بواسطة أساطيلهم، وبعد ما رأى المهدى استحالة فتح الأندلس فكر في مصر ولم يتم ذلك إلا في عصر المُعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وكان ذلك أعظم إنجاز قامت به الدولة الفاطمية والذي حفظ لها مكاناً بارزاً في التاريخ، وفي مصر أنشأ الفاطميون عاصمة جديدة هي القاهرة كما

أنشئوا جامع الأزهر والذي أصبح يدرس فيه مختلف العلوم والفقه الشيعي.

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وتحت إشراف الوزير الحسن بن علي البازودي (١٠٥٠ - ١٠٥٨ م) والذي جمع في يديه ثلاثة مناصب قاضي القضاة وداعي الدعاة والوزارة (وكان الخليفة لازال صبياً)، في هذه الفترة حققت الدعوة الاسماعيلية نجاحاً رائعاً ولو أنه موقت في العراق فقد تمكن الداعي الاسماعيلي المؤيد الشيرازي من الاستفادة من الفوضى التي أعقبت سقوط البوهين الشيعة سنة ١٠٥٧ م، لنشر الدعوة الفاطمية هنا، بحيث تم الاعتراف مع بداية عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م، بالمستنصر الفاطمي خليفة في الموصل على نهر دجلة - وفي واسط والكوفة وانطبق ذلك على بغداد في نهاية عام ١٠٥٨ م، حيث دخلت قواه موالية للفاطميين بقيادة البساسي وأجبرت الخليفة العباسي (القائم) على التنازل عن العرش وتم ترحيله إلى (عانتة) على الفرات وأرسلت عباءته وشعارات الملك الأخرى إلى القاهرة، فكان ذلك أعظم انتصار للفاطميين، فقد تمكنوا في النهاية من تحقيق الهدف الذي تطلعوا إليه لزمن طويل وهو تكوين دولة إسلامية كبرى وإسقاط الخلافة العباسية.

غير أن الانتصار لم يدم طويلاً وسرعان ما ضيّعه ابن المغربي خليفة الوزير اليازوري الذي منع إرسال مساعدات مالية وعسكرية مستعجلة إلى القائد البساسي، ولذلك استعيدت الخلافة العباسية سنة ١٠٥٩ م، بمساعدة السلاجقة الأتراك واضطرب القائد الفاطمي البساسي إلى مغادرة بغداد. ومنذ سنة ١٠٦٢ م، حدثت مشاكل عميقة في مصر أدت إلى استلام الخلافة الفاطمية من فرع آخر من الاسماعيلية. وقد امتد نفوذ الفاطميين إلى أغلب مناطق العالم الإسلامي، فتولوا حكم فلسطين وسوريا والمحجاز كما استطاعوا نشر دعوتهم على الطرق التجارية المشرقية ابتداءً من البحر الأحمر إلى الهند، حيث أخذ دعاتهم يصولون ويجولون في طول الأرض وعرضها، وقد فرض الفاطميون سيطرتهم عن طريق الصلحين على عُمان لضمان وصوّلهم إلى السنديانة.

وابتداءً من سنة ١٠٦٢ م، بدأ الضعف يدب في جسد الدولة الفاطمية حتى نجح صلاح الدين الأيوبي في وضع نهاية للدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، بعد ما حكمها الفاطميون حوالي ثلاثة قرون (٢٧٠ سنة).

كانت الدعوة الفاطمية تنطوي بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي وكانت في قوتها وعفوانها قد أصبحت تتحرك جيوشها بحرية نحو المغرب ومصر غازية، فمنذ عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين والجتياح السريع للمغرب كان ذلك يثير القلق والخوف في حكومة قرطبة الأموية.

وكان الثوار الشيعة الأندلسيين يتوجهون بأبصارهم إلى الدولة الفاطمية ويأتقرون معهم على الإطاحة بحكومة الأندلس، ولكن عبد الرحمن الناصر أراد إيقاف الفاطميين عند حدهم فأرسل اسطولاً حربياً إلى المغرب سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م، وسيطر على سبتة وأخرج منها ولاتها البربر منبني عاصم حلفاء الفاطميين، كما طلب الناصر من والي طنجة أبي العيش الحسني أن يتخل عنها فرفض وقاوم ولكنه أجبر بالأخير على التخلي عنها والانسحاب إلى مدينة البصرة وثغر أصيلة.

وكان أبي العيش وأخوه وبني عمه من الأدارسة العلوين وربما كانت إمارتهم هي إحدى الإمارات العلوية التسعة التي ذكرها المؤرخ الجغرافي اليعقوبي الذي زار المنطقة بين أعوام ٢٦٣ - ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ - ٨٧٦ م، كما يذكر بأن عدد من الزعماء البربر والأدارسة العلوين وكذلك من قبيلة زناته كانوا قد دعوا الناصر إلى المهادنة ففعل، ثم استطاع الناصر فرض سيطرته على بعض المدن المغربية، ولكن الفاطميون أرسلوا جيشاً قوياً بقيادة ابن يصل عامل تاهرات للسيطرة على المغرب غير أن الناصر استطاع أن يهزم جيش الفاطميين بقيادة موسى بن أبي العافية أمير مكناسة.

وفي سنة ٣٢٣ هـ، كرر الفاطميون حملاتهم للسيطرة على المغرب حيث بعث الخليفة الفاطمي (القائم) حملة إلى المغرب بقيادة ميسور الصقلبي فضيق على موسى حليف الناصر وطارده حتى الصحراء، وبذلك فقد استطاع الفاطميون والأدارسة العلوين السيطرة على مكناسة وضواحيها، وهكذا عاد حكم الأدارسة إلى بعض مناطق المغرب بدعم وإسناد فاطمي.

وكانت فكرة غزو الفاطميين للأندلس تلوح قوياً في الأفق وكان تفكير الفاطميين إنشاء إمبراطورية عظيمة وتوسيعها أما نحو الأندلس أو مصر حيث توجد هناك عوامل كثيرة تشجع على ذلك، وكان الخلفاء الفاطميين على علاقة وثيقة مع الثوار

الأندلسيين الشيعة وكذلك مع التأثر العنيد عمر بن حفصون زعيم المولدين، الذي امتدت ثورته من سنة ٢٨٨هـ إلى وفاته سنة ٣٠٦هـ وكانت هناك رسائل متبادلة بين الخلفاء الفاطميون والثوار الأندلسيين وكان هناك دعم مادي وثقافي من قبل الدولة الفاطمية حيث أرسلت إليهم عدد من الدعاة للتبرير بالدعوة الفاطمية.

وقد سقطت بعض الرسائل والوثائق في يد حكومة قرطبة والتي تبين نية الدولة الفاطمية بغزو الأندلس بالتعاون مع بعض الثوار الشيعة الأندلسيين، وفي سنة ٩٥٥هـ/٣٤٤م، سارت بعض السفن الحربية الفاطمية وهاجمت ثغر المرية وأحرقت ما فيها من سفن، فرد عليهم الناصر بأن أرسل قوة بحرية إلى شواطئ أفريقيا (تونس) فعادت فيها، وأمر عبد الرحمن الناصر في نفس الوقت بلعن الشيعة والفاتميين على منابر الأندلس، وهو بالضبط ما فعله قبلًا معاوية بن أبي سفيان عندما أمر بلعن علي وشيعته على منابر الدولة الإسلامية، وهو أسلوب دائمًا يستخدمه الحكام عندما يواجهون خطأً جارفاً من الأمة، ولكي يحافظون على سلطانهم فيعتمدوا إلى تكفيه وإسقاطه وإخراجه عن الملة.

وسيّر الخليفة الفاطمي المُعز قائد جوهر الصقلي سنة ٣٤٧هـ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ومعه زعيم صفهاجة زيري بن مناد في قواته فاحتاج شمال المغرب كله حتى المحيط، وكان بنو زيري قد أسسوا إماراة علوية في الأندلس في البيرة (غرناطة) وكانتوا حلفاء لبني حمود العلوية وذراعها العسكري القوي، ولما رأى عبد الرحمن الناصر ضعف الدولة العباسية وما يحدث من فوضى واضطراب في المشرق خاصةً بعد سيطرة البوهيميين الشيعة على بغداد، كما رأى أن الدولة الفاطمية أعلنت الخلافة وعدم الاعتراف بالدولة العباسية، لهذا رأى أنه من الأجرد به أن يعيد سالف محمد بنى أمية ويعلن الخلافة الأموية في الأندلس ونفذ ذلك الأمر في مستهل ذي الحجة سنة ٩٢٩هـ/٣١٦م.

وكان سابقاً أن الأمراء الأمويين في الأندلس يعتبرون ويعتقدون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين وأنه حق شرعي له لهذا كانوا قد سموا أنفسهم بالأمراء، ولكن هناك من يرى أن الأمراء الأمويين هم أمراء سلطة وحكم ومال وهم أشد أعداء بنى العباس الذين أطاحوا بحكمهم في المشرق سنة ١٣٢هـ، لهذا فإنهم لم يعلنوا الخلافة

في بادئ الأمر لاعتبارات سياسية واجتماعية وخوفاً من الفتنة، ثم أعلناها بعد ذلك لما رأوا أن الظروف تخدمهم وأن الخلافة العباسية قد نسخت وأخذت الدولة الإسلامية تنفصل إلى دويلات مستقلة.

وقد قام عبد الرحمن الناصر بإجراء آخر ضد الفاطميين وهو دعم الثوار الخارجين على الدولة الفاطمية أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار، كما أنشأ أسطولاً حربياً نازع فيه الفاطميون في البحر المتوسط، كذلك وطد علاقات دبلوماسية مع أعداء الفاطميين فتحالف مع ملك إيطاليا (Hugues) الذي كان يعتقد على الفاطميين لدميرهم ميناء (جنوه)، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين، أما الإجراء الآخر الذي اتخذه الناصر هو إرسال فقهاء المالكية إلى مصر في زمن الإخشيد وقبل فتحها من قبل الفاطميين لمحاربة المذهب الشيعي أمثال الفقيه أبو إسحاق محمد بن قاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

كل هذه الإجراءات القوية والخاسمة التي قام بها الناصر أدت وبالتالي إلى صرف الفاطميين عن فتح الأندلس والاتجاه إلى مصر، هذه الإجراءات السياسية والعسكرية كانت ولا زالت تمارس حتى اليوم للحفاظ على المصالح السلطوية والفعوية والقبيلية وكانت تمارس فوق كل الاعتبارات الدينية أو المذهبية، وكان هارون الرشيد قد عقد علاقات وتحالفات مع ملك فرنسا شارلماן الكبير لمحاصرة الدولة الأموية في الأندلس وضربها.

كما مارستها بعض الدول العربية في تحالفها مع أمريكا والغرب في ضرب الدول العربية الأخرى بل إن بعض هذه الدول أيدت أمريكا وإسرائيل والغرب في سياستها المضادة لإيران المسلمة، وفوق كل ذلك تخلت عن قضية فلسطين وتركت أراضيها للاستعمار الصهيوني يشيد فيها المستعمرات والقواعد العسكرية دون أن يحرك ساكن فما أشبه اليوم بالماضي.

بداية التشيع في الأندلس

دخل التشيع الأندلس مع دخول الجيوش الإسلامية الفاتحة وأشعـ مع إشعـ رقعتها، وبقى الفكر الشيعي متـجراً في معظم القبائل العربية والبربرية حتى سقوط الدولة الإسلامية الأندلسية سنة ١٤٩٢ مـ، ويذكر بعض المؤرخـين أسباب عديدة لانتشار التشيع في الأندلس منها:

- ـ كان في الجيش الإسلامي الفاتح عدد كبير من العوائل العربية التي تدين بنصرة أهل البيت، وكان معظمها من العراق واليمن كما كان فيها عدد من قواد الجيش الذين اشتراكوا مع الإمام علي عليه السلام في مواجهـات الفتـن والـحروب التي ظهرت في زمانه وهم من التابعين، ومن هذه الشخصيات والبيوت العربية هو حـشـ بن عبد الله الصناعـي، وكان أحد تلامـذـة الإمام علي عليه السلام ومن حـارـبـ إلى جـانـبهـ، وله الفضل في تـثـيـفـ الناسـ إسلامـياًـ فيـ الأـنـدـلـسـ، وـهـوـ أولـ منـ أسـسـ مـسـجـدـ قـرـطـبةـ فيـ سـرـقـسـطـةـ كـمـ يـذـكـرـ أـنـهـ توـلىـ إـدـارـةـ سـرـقـسـطـةـ حـتـىـ وـفـاتـهـ، وـكـانـ منـ أـعـظـمـ قـوـادـ مـوـسـىـ بـنـ نـصـيرـ وـمـسـتـشـارـيـهـ وـبـعـدـ عـودـةـ مـوـسـىـ وـطـارـقـ إـلـىـ دـمـشـقـ اـسـتـمـرـ حـنـشـ الصـنـاعـيـ فيـ إـكـمالـ الـفـتوـحـاتـ إـلـىـ جـانـبـ القـائـدـ التـابـعـيـ عـلـيـ بـنـ رـبـاحـ الـلـخـميـ، حـيـثـ أـكـمـلـ الـفـتوـحـاتـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـشـمـالـيـةـ مـنـ شـبـهـ الـجـزـيرـةـ. وـمـنـ الشـخـصـيـاتـ الـمـهـمـةـ الـأـخـرـىـ هوـ القـائـدـ عـبـدـ اللهـ بـنـ سـعـيدـ بـنـ عـمـارـ بـنـ يـاسـرـ وـكـانـ جـدـهـ صـاحـبـ الإـمـامـ عـلـيـ عليهـ السـلـامـ وـمـنـ حـارـبـ إـلـىـ جـانـبـ الإـمـامـ فيـ مـعرـكةـ صـفـيـنـ وـقـتـلـ فـيـهاـ (ـرـضـ)، وـكـانـ عـبـدـ اللهـ وـالـيـاـ عـلـيـ الـبـيـرـةـ (ـغـرـناـطـةـ)ـ وـلـماـ دـخـلـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الدـاخـلـ الـأـنـدـلـسـ خـرـجـ عـلـيـهـ عـبـدـ اللهـ بـجـيـشـ كـبـيرـ وـحـدـثـتـ بـيـنـهـمـ مـعرـكةـ صـارـمـةـ اـنـتـهـتـ بـاـنـتـصـارـ عـبـدـ الرـحـمـنـ وـمـقـتـلـ عـبـدـ اللهـ بـنـ سـعـيدـ، أـمـاـ الشـخـصـيـةـ الـبـارـزةـ وـالـمـهـمـةـ هوـ الـحـسـينـ بـنـ يـحـيـىـ بـنـ سـعـيدـ بـنـ عـبـادـ الـخـزـرجـيـ وـكـانـ قـائـدـاـ وـثـائـرـاـ شـيـعـيـاـ كـانـ جـدـهـ مـنـ شـيـعـةـ الإـمـامـ عـلـيـ عليهـ السـلـامـ وـكـانـ وـالـيـاـ عـلـيـ سـرـقـسـطـةـ، هـذـهـ الـبـيـوـتـ وـالـشـخـصـيـاتـ الـعـرـبـيـةـ كـانـتـ مـنـابـرـ عـلـمـ وـفـقـهـ وـثـورـةـ أـثـرـتـ تـأـثـيرـاـ قـوـيـاـ عـلـىـ نـشـرـ الـثـقـافـةـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـأـنـدـلـسـيـ، وـكـانـتـ هـاـ نـتـائـجـ مـسـتـقـبـلـيـةـ مـهـمـةـ جـداـ حـيـثـ مـهـدـتـ الـطـرـيقـ إـلـىـ قـيـامـ دـوـلـ الشـيـعـةـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ.

٢ - المركز الثاني للتشيع كان مع القبائل البربرية وهو الأهم والأقوى حيث كانت شمال أفريقيا والأندلس أرض خصبة لانتشار التشيع وذلك لأن التشيع منذ نشأته اخذ طابع ضد العصبية العربية الذي سلكته الدولة الأموية الأعرابية، وكما أن التشيع في المشرق قام عليه المولى من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه المولى من البربر، وقد تردد صدى التشيع في الأندلس لأول مرة في صفوف البربر الذين كانوا يشكلون غالبية الجيش الإسلامي الذي فتح الأندلس، وقد استأثر العرب دونهم بالغنائم وثمرات الانتصار كما أخذوا المدن والأراضي الخصبة والسهول بينما استوطن البربر المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة وسط شبه الجزيرة والمنطقة الجبلية في جنوب شرق الأندلس في كورة البيرة، وهذا التعامل الغير منصف من قبل الأمويين أثار الغضب والأحقاد عليهم. وكانت المناطق البربرية ميداناً لجميع الثورات الشيعية في الأندلس، وكانت أو ثورة شيعية قام بها البربر هي ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي الملقب بالفاطمي سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م.

٣ - هروب العلوين من بطش ودموية الدولة الأموية في المشرق إلى شمال أفريقيا وتأسيس أول دولة علوية بزعامة إدريس بن الحسن وهي دولة الأدارسة في المغرب وقد بايعته معظم القبائل البربرية، وكان ذلك له صدأه الكبير على البربر في الأندلس وكانت دولة الأدارسة من أهم العوامل وأكبرها التي غذت التشيع في الأندلس وأمدتها بألوان ثقافية جديدة، ثم جاءت الدولة الفاطمية وسيطرت على شمال أفريقيا ومصر وكانت أيضاً بمثابة الطوفان الهائل للتشيع الذي أدى بالأخير إلى إسقاط الدولة الأموية في الأندلس ومهد الطريق إلى قيام دولةبني حمود العلوية الإدريسيية فيها.

٤ - نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس عن طريق الأندليسين الذين ذهبوا للمشرق للدراسة وطلب العلم حيث نقل هؤلاء كثير من كتب الشيعة بعد عودتهم إلى الأندلس، ويُذكر بأن أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية وأدخلها إلى الأندلس هو أبو الحكم عمر بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي، منها كتاب بديع الزمان الهمданى وابا بكر الخوارزمي وكتب الشريف الرضي وغيرها، وقد أثرت هذه الكتب تأثيراً كبيراً على الأدب والفلسفة والفقه في الأندلس. ويُذكر بأن الأندليسين كانوا ينقلون

ويقلدون المغاربة بل كان ذلك شئهم جمِيعاً حتى أواخر القرن الثالث الهجري والدليل على ذلك (العقد الفريد) لابن عبد ربه. ويُذكر بعض المؤرخين بأن الأدب الشعبي في المشرق كان من أهم العوامل التي غذت الأدب العربي بألوان جديدة وأنه يمتاز بصدق العاطفة وقوة الشعور الديني، لهذا فقد ظهر شعراء في الأندلس شيعة كانوا من فطاحل الشعر العربي في الأندلس مثل ابن هاني الأندلسي الذي لُقب بـ«متنبي الغرب» وابن شهيد القرطبي وعبد الرحمن بن مقانا الأشبواني وغيرهم، وسنذكر ذلك بتوسيع في مكان آخر من هذا الكتاب.

تشيع البربر

معنى البربر وأصله :

يُذكر بأن الكلمة البربر لم تكن موجودة في القاموس العربي اللغوي أيام الجahليّة فالصلة بين الجزيرة العربية والمغرب لم تكن قوية، ولكن على ما يبدوا أنها دخلت إلى القاموس بعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، واحتلاطهم بالروم وليس بمستبعد أن نقل العرب هذه التسمية من اليونان الذين أطلقوا اسم بربر على الشعوب التي لا تتكلم اليونانية، ومن ثم جاء الرومان وأطلقواها على الشعوب غير الرومانية من جرمانية ومغاربية، فسموه بـ«بربار» وعربها المسلمين إلى بـ«بربر» وبربار.

وذكرها بأن سبب تسمية شعب المغرب بالبربر أن أفريقيش بن قيس بن صيفي لما فتح المغرب وسمع رطانة البربر، قال: ما أكثر ببرتهم فسموا بالبربر، والبربر في لغة العرب اختلاط الأصوات غير المفهومة، وحسب ابن خلدون فإن البربر ينقسمون إلى طائفتين، هما البربر الحضر الذي يسكنون المناطق الخصبة ويشتغلون بالزراعة والصناعة والبربر الرُّحل الذين يسكنون الصحراء ويعيشون على الرعي وما يسلبونه من غاراتهم على ما يجاورهم من عمران.

وهناك تشابه بين القبائل العربية والبربرية من حيث الانقسامات إلى عوائل وقبائل وبطون وصفات أخرى كالشجاعة والخشونة وحب القتال وغيرها، ويُذكر بأن شعب المغرب اتخذ اسم أحد أبناءه البعيدين وهو (بر) وهذا رأي ابن حزم نقله

عن يوسف الوراق المتوفى سنة ٩٧٣هـ / ٣٦٣ م، الذي يرجع إليهم البكري في كتابه (المسالك والمالك) أو (بربر) حسب رأي آخرين مثل الصولي.

وفي القرن الرابع الهجري دونت أنساب البربر بالعربية وأصبح لها علم لم يقل شائناً عن علم الأنساب عند العرب ومن مشاهير نسابة البربر الذين يذكرهم ابن خلدون هم: سابق بن سليم المطاطي وهاني بن مسدور وأيوب بن أبي زيد وغيرهم. وينقسم البربر حسب النسابة - نacula عن الدكتور السيد عبد العزيز سالم - إلى قسمين رئيسيين هما البرانس والبتر ، فال الأول ينتمي إلى برسن بن بر فسموا البرانس ، والثاني ينتمي إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر .

وينقسم البرانس إلى سبع قبائل هي: أوربة - صنهاجة - كاتمة - مصمودة - أوريغة - أزداجة، وقيل عشرة يضاف إليها - لطة - هسكورة - جزولة، وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى زعموا أنها مقدار الثلث منهم، وكانت صنهاجة قد تشيّعت وساندت الدولة الفاطمية ومنهم من كون إماراة شيعية في غرناطة في عصر الطوائف، أما كاتمة فقد لعبت دوراً هاماً في قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وتعتبر مصمودة من أهم قبائل البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته، ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدوة في الريف وبراغوطة أهل تامسنا وأهل جبل درن وكانوا يعيشون فيما بين بور جرح وأم الربيع، ومن المصامدة المستقرة في السهل - دكالة - جنوب وادي أم الربيع و - رجراحة - على وادي تنسيف وجميع المصامدة متحضر ون قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن، وصنهاجة المسمون الآن بالطوارق، يتلشمون ويسمون بالتلثمين أيضاً ومنهم المرابطون، ومواطن صنهاجة تقع في جنوب بجاية إلى جنوب الجزائر.

أما ببر البر فينقسمون إلى أربعة قبائل هي: ضريسة - نفوسة - وداسة - بنو لواي أو لواته. وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناته، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناته فرعاً من البربر قائماً بذاته، وتتفرع من زناته: جراوة - مغراوة - بنو يفرن - بنو زيان - بنو مرین، ومن لواته قبيلة نفزة أو نفزا التي استقرت في المناطق الجنوبية من تونس وطرابلس وقسطنطينية.

وبعض من نسابة البربر قالوا بان البرنس والبتر يرجعون إلى (بر) جدهم جميعاً

ولكن آخرين لم يوافقوا على هذا الرأي الذي قال به ابن حزم في كتابه (جمهرة أنساب العرب) فقالوا أن لكل من الجماعتين جدها الخاص بها فالبرانس أبناء بر ابن أمازيغ بن كنعان، والبتر أبناء بر بن قيس بن عيلان، وهذه النسبة الأخيرة إلى الكنعانيين والقيسيين تعني أن البربر قبائل مشرقية الأصل هاجرت إلى المغرب في ظروف تاريخية معينة، وهذا ما يقوله النسابة فعلاً، وأكّد هذا بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن الكلبي وابن قتيبة والجرجاني والطبراني والمسعودي والبكري وابن الأثير بأن أصل البربر من الشام وأنهم طردوا من فلسطين أيام داود عليه السلام الذي قتل ملكهم جالوت، وهناك روايات أخرى تقول أنهم من اليمن، ومنهم من قال أنهم من أصول متعددة اجتمعوا في الشام، ويقول ابن خلدون أنهم قدمو من الشام، ويدرك بعض المؤرخين بأن هجرة البربر من الشام إلى المغرب فيها شيء من الحقيقة ولا سيما أن القرطاجيين قدمو إلى هذه البلاد وهم فرع من الفينيقيين الساميين. أما اللغة البربرية فكانت عبارة عن عدد من اللهجات أشبه بلهجات القبائل العربية قبل الإسلام قبل أن تسودها اللهجة القريشية وهي لغة القرآن، والبربرية كانت تكتب في العصور القديمة وقد عُثر على بعض نقوشها في الصحراء ويدرك أن هناك تشابه بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة. وبعد أن تعرب المغرب كتبت اللغة البربرية بالحروف العربية.

مناطق استقرار البربر في الأندلس

كان البربر يشكلون الأغلبية الساحقة في حملة طارق بن زياد في فتح الأندلس، يضاف إلى هذا فإن العديد منهم عبروا إلى الأندلس بعد سauxهم بـ انتصار طارق على الغوط الغربيين، ويدرك ابن خلدون أسماء أربعة قبائل بربرية كان يتألف منها جيش طارق بن زياد الذي دخل الأندلس وهي: مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وكلها متفرعة من زناتة.

كما يضيف ابن حزم في كتابه (جمهرة أنساب العرب) قائمة بقبائل أخرى وفدت الأندلس وهي: مغيلة وملزوزة ونفرة وأوربة ومصمودة. ولقد لعب البربر دوراً مهماً في تاريخ الأندلس إذ يرجع إليهم الفضل الأعظم في نشر الإسلام والجهاد في

سبيله كما أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً وثيقاً وكانوا للعرب أعواناً في تغلغل الإسلام إلى سائر أنحاء البلاد، الأمر الذي جعل الطابع البربرى ظاهرة واضحة في جنوب الأندلس حتى الوقت الحاضر.

ومن المناطق التي استقر فيها البربر هي جنوب الأندلس مثل الجزيرة الخضراء وشذونة وشبيلية وقرطبة ورنده وجيان والبيرة (غرناطة) وكانوا يتمركرون بأعداد كبيرة في الجزيرة الخضراء والذين يتبعون إلى قبيلة مصمودة، وتشير المصادر إلى ذكر أحد علمائهم المشهورين وهو عباس بن ناصح المصمودي ويسميه البعض عباس بن ناصح الثقفي، وقد أصبح قاضياً لشذونة والجزيرة الخضراء في أثناء عهد الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وكان هذا العالم الجليل شاعراً مرموقاً، أرسله الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٥٢ هـ) إلى العراق في التماس الكتب القديمة، ثم درس هناك وصاحب بعض العلماء والفقهاء وتأثر بالفلك الشيعي ثم رجع إلى الأندلس وهو يدرّس تلاميذه الفقه الشيعي، وقد أثر على كثيراً من أبناء عمومته من مصمودة، وفي شذونة استقرت قبيلة ملزوزة كما عاشت فيها قبيلة مغيلة، وكانت مغيلة قد بايعت وناصرت دولة الأدارسة في المغرب.

وفي مدينة مورور استقر العديد من القبائل البربرية منها مصمودة بزعامة إبراهيم بن شجرة البرني، وفي اشبيلية وضواحيها سكنت قبائلبني الخروبي الزناتيين وبني الليث من زناته واستقر بعض من أفراد صنهاجة في ضواحيها ومجموعات من مصمودة، وسكنت قرطبة ومناطقها العديد من القبائل البربرية مثل مصمودة وهوارة ومغيلة وكتامة، وكانت كتامة أول قبيلة ببربرية آمنت وببايعت الدولة الفاطمية ثم تكون الفاطميون من أبنائها جيشاً عظيماً فتحوا به شمال أفريقيا وأسقطوا دولة الأغالبة، كما سكنت ضواحي قرطبة قبائل مكناسة ومديونة ونفزة وجراؤة، وينتمي العالم والفقير المنذر بن سعيد البلوطى إلى نفزة وكان قاضي الجماعة في قرطبة في زمن الناصر، وكان شيئاً معتدلاً، وكانت نفزة قد آمنت بدعاوة ابن القطب أحمد بن معاوية بن هشام سنة ٢٨٨ هـ، حيث كان شيئاً ثائراً على الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الداخل.

واستقر في جيان وماحولها أفراد من صنهاجة وهوارة وهتروكة، أما في البيرة (غرناطة) فقد استقرت كتامة والتي تعتبر من أهم القبائل البربرية في هذه المنطقة،

وسكنت قبيلة ملية في مدينة ريه القرية من ملقا ويحتمل أيضاً أن يكون قد سكنتها بعض الأفراد من مغيلة، وكانت تاكررونا القرية من رندة التي تقع بين أشبيلية وملقاً موطنًا لجامعة كبيرة من البربر الذين يتبعون إلى مصمودة ونفزة وبني الخليل، ويذكر أن منطقة تاكررونا كانت مركزاً للتمرد الذي قاده البربر على الإمارة الأموية وكانت غالبيتها ثورات شيعية، وسوف نذكر ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما المناطق الوسطى من الأندلس والتي تمتد عبر وديان نهر التاجة شمال طليطلة وطليبرة وإلى وادي نهر آنه في الجنوب حيث تقع ماردة ومدلين، هذه المناطق أيضاً استقرت فيها أعداد كبيرة من البربر وكان غالبية الذين سكنوا طليطلة من البرانس وبعضهم يرجع إلى البتر مثل مغيلة، واستقرت جماعة من نفزة مثل بني رشيد في يانة (زانة) ويرجله (Tajilla أو Tarjalu) وعاشت جماعة من نفزة ومكناسة في ماردة، وكانت جبال المعدن مأهولة بالبربر وغالبيتهم من البرانس وتقع هذه الجبال إلى الجنوب من وادي نهر آنه واستقرت مجموعة أخرى من البرانس وتدعى مسطاسة في منطقة قلعة رباح.

وسكن العديد من البربر في المنطقة الغربية التي يطلق عليها منطقة الجوف وكان عدد البربر فيها كثيراً حتى ان المؤرخ ابن حيان يقول فيها: (إن أرض الجوف بلاد البربر) وكان ماردة ومدلين Madellin اللتين تقعان على صفاف وادي آنه من أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان وكان معظمهم يتمي إلى مصمودة ومكناسة وهوارة وكتامة وبنو وانسوس المكناسيون، ويذكر بأن أحد أبناء هذه القبيلة قد تمرد على الأمير الأموي في عهد الحكم الأول ويدعى أصبع بن عبد الله بن وانسوس وقد أيد هذا التأثير ببربر منطقة ماردة.

كما استقر في ماردة ومدلين في وقت مبكر بنو فرفرين من هوارة، وكانت قورية ولجدانية Idanha من المواطن الكبيرة لاستقرار البربر وبشكل خاص أولئك الذين يتبعون إلى مصمودة وتقع قورية على الحدود الإسبانية البرتغالية غرباً، وربما تستقر مجموعة من مصمودة في لشبونة، واستقر بنو دانس بن عوسجة من مصمودة في الأقسام الجنوبية من البرتغال، وعاش قسم آخر من البرانس في قلمرية التي تقع جنوب بورتو Porto في البرتغال.

واستقرت بعض القبائل البربرية البتية في هذه المنطقة الغربية ومن هؤلاء جماعة نفزة أو مدionate على رأي ابن حزم وأقاموا في حصن أم جعفر الذي يقع في كورة ماردة، وكان لعشيرة زواغة حصنهما الخاص بها بالقرب من بطليموس وما زال هذا المكان يسمى **Azuaja** وربما عاشت جماعات تنتهي إلى كل من قبيلة مغيلة وزناته في منطقة بطليموس في أماكن ضللت تحمل اسميهما هاتين القبيلتين إلى هذا اليوم مثل **Gineta** و **Maguillia**.

كما استقر البربر في المناطق الشرقية من الأندلس وبشكل خاص في منطقتي بلنسية وتدمير (مرسيه) وينتمي هؤلاء إلى قبائل صنهاجة وأوربة وكتامة وهوارة ومصمودة، وعاشت قبائل مصمودة في المناطق التي تشكل في الوقت الحاضر ما يُعرف بمحافظات قسططيلون **Castillon** ولقنت **Alicante** ومرسيه **Murcia**.

وسكنت كتامة في قرية تدعى البونتي **Alpuente** وكان من أشهر هؤلاء الكتاميين - بنو قاس - ويُذكر بأن كتامة كانت أول قبيلة بربرية تشيّعت وساندت الدولة الفاطمية، ولا زال المكان يحمل اسم بنو قاسم **Banocasim** القرية من **Castillon** وشغلت الأقوام التي تنتهي إلى نفزة منطقة شاطبة **Jativa** وتولت بعض أسرهم الشهيرة فيما بعد حكم شاطبة، وهناك موقع في منطقة شاطبة يُعرف لحد اليوم باسم **Nifzies** نسبة إلى قبيلة نفزة، وعاشت جماعات من قبائل زناته في بلنسية ومرسيه ولقنت ويُذكر أن أحد مناطق بلنسية كان يسمى زناته.

واستقر البربر أيضاً في المناطق الشمالية الشرقية من جبال البرت إلى المناطق التي تشمل في الوقت الحاضر (لاردة **Lerdia**) و(وشقة **Huesca**) ثم توجه جنوباً إلى نهر الأبرة **Ebro** والمحافظات الحديثة سرت **Soria** ووادي الحجارة وقوينقة وتيروال (طرويل) **Teruel**، باستثناء سرقسطة وماحولها والتي سكنتها في الغالب من عشائر عربية ومع ذلك فقد سكنتها بعض الأفراد من قبائل زواغة وصنهاجة ومكناسة وهوارة، وكانت المناطق المهمة المأهولة بالبربر تشمل وادي الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب وشتبرية **Santaver** ووبذة **Hueta** وتروال **Teruel**، وتُعد مغيلة من القبائل التي سكنت في منطقة وادي الحجارة، وقد أصبح أحد زعمائها والياً لهذا المدينة وهو محمد بن الياس المغيلي، وعاشت في هذه المنطقة بنو برازal وبعض أفراد بنى الياس الذين جاءوا إلى هذا المكان من لشبونة.

وكان قبائل البرانس ومصمودة من الأوائل الذين استقروا في وادي الحجارة ومن المحتمل أن يكون سالم بن رعال جدبني فرج أحد الذين رافقوا طارق بن زياد إلى الأندلس، وقد أصبحت مدينة وادي الحجارة تسمى مدينة فرج نسبة إلى أحد أحفاد سالم الذي يدعى فرج بن مسراة، وهناك مدينة أخرى تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة وادي الحجارة تسمى مدينة سالم نسبة إلى أسرة سالم، ولا زالت تحفظ باسمها Madinaceli، أما الأسرة الهموارية الأخرى فهي أسرةبني رزين ومن المحتمل أنها تنتهي إلى رزين الأبرنيي الذي كان من أعظم القواد الذين دخلوا الأندلس بصحبة طارق بن زياد، وكان بنور زين قد استقروا في قرطبة أولًا ثم تحولوا إلى الشمال وأقاموا في مكان يدعى السهلة القريب من تروال Teruel وقد حكموا هذه المنطقة في أواخر الدولة الأموية ما يقرب من تسعين سنة (٤٩٧ - ٤٠٣ هـ) (١٠١٢ - ١١١٤ م).

ولا زالت عاصمتهم التي سميت باسمهم تقع على بعد ثلاثين كم إلى الغرب من تروال وتحمل اسم Albaracin، واستقرت أسرة أخرى من مصمودة في شتيرية ووادي الحجارة ومنهم بنو أران وبنو مضي وبنو رسين، وأقام أفراد من بنو عمارة في مكان لا زال يدعى Bengamar، وكانت قبائل برانس وهوارة من الأوائل الذين سكنوا الشمال الشرقي، وتشير المصادر على أن مجموعة منهم سكنت المنطقة بقيادة السمح بن ورد حيقن الهماري الذي دخل الأندلس في أول الفتح واستقر هو وأتباعه في شتيرية في قرية تسمى - أقاللة - ويُعد هذا القائد الجد الأعلى لبني ذي التون الذين لعبوا دوراً مهماً في هذه المنطقة وشيدوا مدينة وبذلة Hueta وأقليس Ucles، كما حكموا طليطلة في زمن الطوائف.

كما عاشت في هذه المنطقة من قبيلة نفزة أيضًا بنو عمير وبنو غزلون وبنو نعمان وبنو بلال الذين استقروا في شتيرية ووادي الحجارة وتروال، كما سكن في تروال جماعة من بنو برغواطة ومن المحتمل أنهم سكنوا في مكان يسمى باسمهم Burbagena وبنو صبرون الذين يتبعون إلى قبيلة أوربة ومنهم صبرون بن شبيب وابنه وكيل اللذان حكموا لاليشة Aliaga في الشمال الشرقي من تروال.

وسكنت قبيلة مكناسة في شتيرية وما يجاورها وكان منهم الشائر شقيا بن عبد الواحد المكناسي الذي قاد ثورة كبيرة ضد عبد الرحمن الداخل استمرت عشرة

سنوات وكان شيعياً وقد ساندته وأيدته قبيلة نفزة، وأيضاً سكنت هنا مدیونة و منهم بنو هذيل وكانوا أمراء في الثغور وخاصة في شتبرية ووادي الحجارة حيث تولى منهم إمارة هذه المدن وهما هلال وعامر بن ثابت المديوني، وسكنت في هذه المنطقة أيضاً عوسجة وينسب إليهم بلاط عوسجة كما حكم فرع من هذه القبيلة (وبندة) يدعى عامر بن وهب، وحكموا أيضاً هنا بنو غزون من زناتة ولا زالت بعض الأماكن تحمل أسمائهم مثل Bebisenet و Sanet و Butsenit، وربما استقر أفراد من صنهاجة في وادي الحجارة لأن المؤرخ اليعقوبي يذكر أحدهم كان حاكماً لهذه المدينة، وسكنوا هنا بنو عبدوس من صنديبة وهي قبيلة بتيرية، ومدغرة أيضاً بتيرية، وقد عاشت في طرطوسة Tortosa بالقرب من نهرة الأبرة Ebro.

وعاشت هنا أيضاً بنو الأدم وبنو قنة من (هوتونة) في الثغور ووادي الحجارة وشتبرية، وبني شميط في قلعة أبيوب وبني دروقة الذين استقروا في ناحية دروقة Daroca التي سميت على اسمهم والتي تبعد ٢٨ كم عن قلعة أبيوب، ولازال المكان يحمل نفس الأسم، وهو اليوم مدينة تابعة إلى قلعة أبيوب من محافظة سرقسطة.

وسكن البربر أيضاً في الشمال الغربي خاصة في جليقية Galicia واستورقة Astorga وشرطانية Cerretania غرب جبال البرت، واستقر في أول الأمر منوسة الذي كان قائداً في جيش طارق بن زياد في مدينة خيخون Gijón في منطقة الأستوريش Asturias، وقد أصبح فيما بعد حاكماً على شرطانية ومسئولاً عن كل المنطقة الممتدة من جبال البرت إلى المحيط الأطلسي، ومن المناطق التي سكنتها البربر هي أوربا Orba في نافارا Navarra ويعتقد أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة أوربة التي استقرت بها وكذلك مناطق غوميريز Gomeriz في جليقية و Comar من سرته Soria وقد اتخذت أسمائها من قبيلة غمارة التي استقرت بها.

أما كتامة فقد أعطت أسمها إلى كل المناطق التالية : Cotanes في محافظة بلد الوليد Cotanillos حي في منطقة شقوبية Segovia و Cotimos التي تقع بين مدینتي Lamego و Almadia في البرتغال، وكذلك سميت جبال Sierra de Burrnes و Botnes في الشمال الشرقي من البرتغال و Albonos في محافظة أبيلا Avila على اسم البرانس البربرية، ويُذكر بأن قبائل البرانس يؤلفون الغالبية الكبيرة الذين اختاروا

الاستقرار في هذه المنطقة الجبلية.

ويذكر الدكتور ليفي بروفينسال أن هؤلاء البربر استقروا بلا استثناء تقريباً في المناطق الجبلية التي لا يندر وجودها في شبه جزيرة أيبيريا، ويعمل ذلك بأنهم لم يكن لديهم الخيار لأن العرب احتضروا أنفسهم بأكثر الجهات خصباً مثل فحوص الأندلس والمنيات الشرقية، ولما كان البربر قدمو من بلاد جبلية فقد كان في مقدورهم التكيف باستقرارهم خارج المناطق السهلة وذلك بشغل مناطقهم المرتفعة في هضبة (الميزيتا) الوسطى وسفوح جبال (السيرا) حيث قاموا بتربية المواشي وغرس الأشجار ونعموا بحياة استقلالية لا يخضعون فيها للسادة العرب.

مناطق استقرار العرب

ذكر ابن غالب الأندلسي في كتابه (فرحة الأنفس) وابن حزم في (جمهرة أنساب العرب) من أن المنازل التي نزل بها العرب فيسائر أنحاء الأندلس كانت تميز بأنها أخصب مناطق البلاد وأطيبها، فقد نزلوا في مدن السهول وعلى الأخص سهول وادي الكبير مثل فحص (سهل) أشبيلية وقرطبة واستجة، وفي الفحوص الخضراء لوادي شنيل ووادي تاجة ووادي أبرة (أبرو) Ebro وفي مروج شرق الأندلس وفي السواحل الجنوية والجنوبية الشرقية.

ففي طليطلة استقر الوقشيون الكنانيون والأنصار، وفي أشبيلية استقر بنو قيس بن عيلان والباجي اللخميون، وبنو هوازن بن عكرمة، والبلويون من قضاعة، والحضرميون من حضرموت، وفي أوريولة بنو هذيل بن مدركة، وفي بلنسية بنو بكر بن هوازن، وفي وادي أش بنو أسد بن ربيعة، وفي غرناطة بنو عطية بن ربيعة وبنو عبد السلام بن خولان، وبنو أضحى بن همدان، وبنو جودي بن هوازن، وبنو القليعة من أزد وبنو الأحر من سعد بن عبادة.

وفي قرطبة بنو حديس بن تغلب وبنو رأس من مذحج وبنو الأصبح من كهلان وبنو جهور من تغلب والحضرميون، وفي أونية وسلطان بنو بكر بن وائل وفي سرقسطة بنو عذرة وبنو الخزرج وفي شقورة بنو غافق... الخ.

وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط إذ يمتلكون إقطاعيات كبيرة

يكلون أمر زراعتها ورعايتها إلى الفلاحين الأسبان أو المولدين من العامة، بينما هم يقيمون في ضياعتهم أو مجاشرهم أو منياتهم بالقرب من المدن، ولذلك كانوا يتمتعون بحياة الترف والنعم، كذلك اتخذ العرب الذين استقروا في المناطق الزراعية بعيداً عن المدن حصوناً وأبراجاً للاحتماء، مثل مراد الواقع بين أشبيلية وقرطبة وقلعةبني سعيد المعروفة بقلعة يحصب وتقع في إقليم غرناطة ومثل قلعة خولان الواقعة بين الجزيرة الخضراء وأشبيلية، وقلعة جابر التي تقع شمال أشبيلية وقلعة أليوب التي أقامها أليوب بن حبيب اللخمي في الثغر الأعلى قرب سرقسطة وقلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة.

كما أن العرب أقاموا لأنفسهم ضياعاً سميت بأسمائهم مثل منزل همان بالقرب من غرناطة ومنزل طي قبلى مرسيه ودار بل شمال قرطبة وهكذا، ويدرك الدكتور عبد الله عنان أنه بعد استقرار المسلمين وسيطرتهم على جميع أنحاء أسبانيا توزعت القبائل والعشائر العربية المختلفة فنزلت قبائل دمشق بكوره قرطبة ومحص بأشبيلية ولبلة وأنحاءها وقنسرين بجيان وأنحائها، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريمة وملقا وأنحائها وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ونزل الفرس بشريش وأحوازها، والعراقيون بكوره البيرة (غرناطة) والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية.

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليموس وأراضي البرتغال ونواحي الثغر الأوسط شمال طليطلة فيما وراء نهر التاجة وفي بعض نواحي الثغر الأعلى وفي قطاع قويقة والسهلة، ونزلت قبائل منهم بين القبائل العربية في نواحي شاطبة ولقتن وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنطيرة.

ويلاحظ من الناحية الإقليمية أن القبائل العربية احتلت معظم الوديان الخصبة في شبه الجزيرة وأن البربر أنزلوا في معظم الأقاليم والمضات القاحلة، وهذا التقسيم المجنح للأقاليم المفتوحة كان عاملاً في الشقاق بين العنصرين الفاتحين العرب والبربر، وفي زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عين السمح بن مالك الخواربي واليا على الأندلس وقد خصص أراضي الولايات الشمالية وهي جليقية وليون والاسترياس إلى البربر وأن تخصص الولايات الجنوبيّة يعني الأندلس إلى القبائل العربية.

ثورات البربر

كان البربر الذين يتألف منهم غالبية الجيش الإسلامي يبغضون قادتهم ورؤسائهم العرب وينقرون عليهم استئثارهم بالسلطة والغنائم الكبيرة واحتلالهم القواعد والوديان الخصبة في الأندلس، ويقول الدكتور عبد العزيز سالم (الحقيقة أن بربر الأندلس ثاروا على العرب في شمال الأندلس وجنوبه لسوء معاملتهم لهم رغم تفوق البربر على العرب في العدد ولكن يبدو أن أسباب الخلاف بين العرب والبربر ترجع إلى استئثار العرب بالأراضي الخصبة دون البربر، لهذا كله كانوا يضمرون للعرب السوء ويتظرون فرصة مواتية فيثبون عليهم).

وذكر المقرئ: (فلما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة وثروا من أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم، وأخرجوه عرب استرقه والمدائن التي خلف الدروب، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه وانظم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهما كانوا أكثر من البربر فلم يهيج عليهم البربر...).

ويُذكر بأن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي أمر ولاته في شمال أفريقيا أن يتذعوا المزيد من الضرائب من البربر من أجل تغطية نفقات الحملات البحرية في البحر المتوسط وكان هؤلاء الولاة يحشدون أيضاً المزيد من البربر لهذه الحملات، ويذكر الطبرى وغيره من المؤرخين بأن الولاة في شمال أفريقيا امتنعوا من إعطاء البربر المشاركين في الحملات العربية نصيبهم من الغنائم، وفي أثناء القتال كان البربر يؤمرون دائماً أن يكونوا في المقدمة، كما كان الولاة أيضاً يقتلون أعداداً هائلة من الشياه التي يمتلكها البربر وذلك طلباً للغرار الأبيض النادر الذي يرسل إلى الخليفة.

ومن الواضح أن سبباً واحداً من هذه الأسباب التي ذكرت سابقاً كان يكفي خلق السخط والاستياء بين البربر وتمردهم ضد الأمويين وكانت هذه السياسة الخطأة السيئة قد بدأ بها الأمويين في المشرق مع المiali من الفرس والترك وكذلك العرب العلوين من بني هاشم ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا على الدين الإسلامي وخلقوا لهم

فقهاءً وعلماء يفتون لهم، وأمر معاوية بن أبي سفيان بسب آل البيت (علي وفاطمة والحسن والحسين) على المنابر وأجبر خطباء المساجد بتنفيذ ذلك وأصبحت سنة إلى مجيء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حيث احتاج وأمر بإزالته هذه السنة الأموية وإطفاء الفتنة بين المسلمين.

وذكر ابن خلدون بأن الأمويين أعراب ودولتهم دولة أعرابية بمعنى بدوية ومن صفات هؤلاء القسوة والشدة والنهب والسلب والقتل والاستئثار بالأموال والسلطة، مما أثار سخط العالم الإسلامي عليهم وغضبه خاصةً بعد قتلهم للإمام الحسين بن علي وفاطمة عليها السلام فجعل ذلك بسقوط دولتهم سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م.

وكانت سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ وقتاً مناسباً لثورة البربر لأن القوات العربية في شمال أفريقيا كانت مشغولة في فتح صقلية، كما كانت في المشرق مشغولة بإخماد الثورات العلوية، وفي هذا الوقت انتشر التشيع في شمال أفريقيا وذلك لأن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعصبية العربية، ثانياً أن الشيعة كانوا ضد سياسة الحزب الأموي الخاطئة، كل ذلك دعا إلى تشييع الكثير من القبائل البربرية وتحالفها مع الشيعة العرب.

وكان تمرد البربر قد اشترك فيه كثير من القبائل البربرية منها: مدionate ومطغرة وهوارة ومجيلة وبرغواطة، وهذه القبائل هي نفسها التي كانت تؤلف غالبية جيش طارق بن زياد عند فتح الأندلس وقد نال هؤلاء التأييد من الجماعات الأخرى في المنطقة وبشكل خاص الأفارقة وبعض الموالي الذين يتبعون إلى أصول بيزنطية، وقد قامت حركة البربر أولًا في طنجة بقيادة مسرا المطغرى زعيم إحدى قبائل البربر حيث هاجموا عاملها عمر بن عبد الله المرادي وقتلوه ثم تقدموا نحو سبتة وأمرروا العرب بالخروج منها، وهكذا بدءوا يتحركون على المدن والمناطق في شمال أفريقيا ووقفوا ضد حكامها العرب فمنهم من قُتل ومنهم من اضطر إلى مغادرة البلاد.

وقد أصبح موقف العرب في شمال أفريقيا خطيرًا للغاية، لهذا اضطر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى الاعتماد على القوات الشامية الأموية وبدأت الاستعدادات في سوريا لإرسال جيش عظيم إلى شمال أفريقيا، وعندما التقى الجيش الشامي مع البربر في شمال أفريقيا في مكان يدعى بقدورة حوالي سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م، بالقرب

من نهر (سبو) انهزم الشاميون هزيمة ذئباء وقتل قادتهم وفر الباقيون، فلاذوا في سبعة وتحصنوا بها مع قائدتهم بلج بن بشير، وسرعان ما أثرت أحداث شمال أفريقيا على برب الأندلس حيث قاموا بالتمرد على العرب، ولما فشلت محاولات الولاة العرب في إخاد هذا التمرد، دعوا القوات الشامية إلى دخول الأندلس بشرط مغادرتها خلال سنة واحدة لأنهم يخشون منها.

ولكن ثورة البربر عمّت جميع مناطق الأندلس وكانت لهم نفس الأسباب التي كانت عند برب شمال أفريقيا، ويُذكر أنه لم يتولى بربري واحد ولاية الحكم في إسبانيا التي تحملوا الجزء الأعظم من المشاق في فتحها ورغم أنهم يشكلون العدد الأكبر فيها، ما عدا منوسة الذي كان قائداً في مناطق الاستوريش Asturias، وجبال البرتات في الشمال والشمال الشرقي من إسبانيا، ولكن هذا القائد كان قد عين في المراحل المبكرة جداً من فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد، يضاف إلى ذلك فإن الولاة التاليين لم يقتعنوا بوجود حاكم بربري مثل منوسة، فهو جم من قبلهم وأجبروه على رمي نفسه من فوق صخرة عالية، وهذه الحادثة زادت استياء البربر في الأندلس.

وقد بدأت ثورة البربر في إسبانيا في الشمال الغربي في جليقية Galicia واستوفة حيث قتلوا العديد من المستقررين العرب وأبعدوا الآخرين نحو الجنوب، أما في الشمال الشرقي ومنطقة سرقسطة فلم يتدخل البربر في هذه الحركة بسبب التفوق العددي للعرب عليهم، وقد نظم البربر المتمردون قواتهم في الشمال الغربي وزحفوا جنوباً للقاء بقية إخوانهم في منطقة قورية وطلبيرة وماردة وغيرها، ويبدوا أنهم كانوا في إحاطة تامة بالموقف في كل من إسبانيا وشمال أفريقيا، وبشكل خاص خطر الشاميين والأمويين في سبعة، لهذا فإنهم انقسموا إلى ثلاثة مجموعات، الأولى أرسلت إلى الجنوب لمنع عبور بلج بن بشير والشاميين إلى الأندلس، والثانية لمحاجمة الوالي عبد الملك بن قطن في قرطبة والثالثة لمحاجمة طليطلة.

ولكن عبد الملك بن قطن استعد لهذا الزحف البربri ودعا الشاميين إلى العبور بقيادة بلج بن بشير، وحسب ما يذكر المؤرخون بأن الشاميين كانوا قساة أميون أعراب، ولقد دعاهم عبد الملك على مضض وكراهية خوفاً من البربر، وشرط عليهم بعد إنتهاء تمرد البربر العودة إلى ديارهم ومقراتهم، وفعلاً غدر الشاميون بالوالى ابن

قطن بعد فشل تمرد البربر وقتلوا ونصبوا بلج بن بشير واليًا على الأندلس.

وقد وصلت القوات الشامية إلى الأندلس قبل وصول البربر إلى قرطبة، وقد فوجئ البربر وهم لا زالوا مسكونين في شذونة بقوات عبد الملك وبليج والشاميين فدُحرُوا بسرعة ثم ردوا في قرطبة، أما التجمع الثالث فقد كان على بعد ٩ كم من طليطلة حيث تقدمت عليه القوات الشامية الأموية المشتركة وهزمته، فتبعهم العرب ولكن البربر تفرقوا واختفوا في منطقة الشغور.

وفي شمال إفريقيا سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م حدثت معركة حاسمة بين الجيش العربي بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبي وجيش البربر الذي يتكون من قبائل زناته وفي مقدمتهم هوارة وكان في جيشين عظيمين، وقد وقعت المعركة قرب القيران في شمال إفريقيا وانهزم فيها البربر، ولكن لم يستطع العرب السيطرة على بقية أجزاء المغرب الأقصى، وبقي البربر هم أصحاب السيادة في هذه المناطق حتى سقوط الدولة الأموية.

واشتد التشيع في إفريقيا وتحريضهم على حكومة الأمويين فيها بعدما أخفقوا في مقاومتهم في المشرق وتواتت الحروب وثورات العلوين وانظم إليهم كثير من القبائل البربرية، وكان لذلك كله صدأه في إسبانيا خصوصاً بين البربر الذي يتألف منهم معظم الجيش، فاضطرب أمر الحكم والنظام في الأندلس، ولبثت حكومة إسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والتمرد والثورات خاصة ثورات الشيعة.

ثورات الشيعة في الأندلس

بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق أصبح الجو ملائماً لكي تثمر الدعوات الشيعية التي بدأت تنتشر منذ زمن بعيد في شمال أفريقيا والأندلس خاصةً بين قبائل البربر وقد انتشرت ثورات الشيعة في الأندلس ضد الأمويين وكانت تحمل نفس الأسباب التي كانت عند العلوين في المشرق ومن أهم هذه الثورات:-

ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي ◎

قاد هذا التأثير ثورة عارمة في شرق الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل، ويعتبرها المؤرخون من أخطر الثورات التي واجهت عبد الرحمن ولعدة سنوات حيث استمرت من سنة (١٥١ - ١٦٠ هـ) أي (٧٧٧ - ٧٩٨ م)، وامتدت ثورته ما بين ماردة Medida وقرية Goria غرباً وإلى الشغور ووادي الحجارة Guadalajara وقويقنة Cuenca شرقاً أي جميع المضبة الوسطى.

ويُذكر بأن هذه الثورة كانت أول ثورات الشيعة في الأندلس وأول محاولة لقيام دولة شيعية في الغرب الإسلامي، ولم يتمكن عبد الرحمن الداخل من هذا التأثير إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه له فاغتالوه، فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة، وكان البربر على أهبة الاستعداد للثورة ضد العرب، لأن الخصومة كانت معهم قديمة، ولما كثر أتباع التأثير الفاطمي سار إلى منطقة شتبرية Santaver فاستولى عليها وجعلها مركزه العام ثم اتجه بجيشه غرباً فاستولى على ماردة وقرية ومدين وعلي جيبي المنطقة الواقعة حوالها بين نهر التاجة ووادي يانة، فقويت دعوته وعظم أمره، فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يقمع ثورة الفاطمي فبعث إلى شتبرية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان، ولكن الفاطمي خرج عليه وهزمه وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر بقوة الفاطمي ورفع معنويات جيشه وفي العام التالي سنة ١٥٢ هـ خرج عبد الرحمن بنفسه واقتحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر بقيادة

المكتناسي معارك عديدة ثبت فيها البربر وهزم عبد الرحمن مع جيشه ثم انسحب مع من تبقى من جنوده إلى قرطبة.

ثم بعث عبد الرحمن عدة حملات عسكرية لإخماد ثورة الفاطمي ولكنها لم تفلح وكان منها حملة عسكرية بقيادة مولاه عبد الله بن عثمان، فخرج إليه الفاطمي فهزمه هزيمة شديدة ففر عبد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ.

وهكذا فشلت الحملات المتواترة لإخماد الثورة في تلك المناطق فعاد عبد الرحمن بجيش جديد وأرسله إلى شتيرية ولكن هذه المرة استقدم كبير البربر واسمه هلال المديوني وأقره ما بيده من أنحاء واصدر له أمراً بإدارة الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي الثائر، وفوض إليه استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثراًها في بث الخلاف في صفوف البربر، فانقض عن الثائر كثير من أصحابه وأنصاره واضطر أن ينسحب من شتيرية إلى الشمال ليعتصم بالجبال.

ولكن في هذه الأثناء نشب فتن أخرى في أنحاء الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل، منها في أشبيلية بقيادة حية بن ملامس الحضرمي وفي باجة بقيادة عبد الغافر اليعصبي وفي بلة بقيادة عمر بن طالوت وغيرها، ولكن عبد الرحمن استخدم حيل عسكرية استطاع بها أن يخلق الفتنة في صفوف الثوار وينسحب معظم أنصارهم وبالتالي استطاع أن يخمد معظم هذه الثورات ويقتل أصحابها وكان ذلك في سنوات ١٥٧ هـ و ١٥٨ هـ، وفي العام التالي قام عبد الرحمن بمطاردة الثائر الفاطمي فالتوجه إلى الجبال وتحصن بها كما لا زال يسيطر على شتيرية وماردة وغيرها وأخذ يتحصن وينظم مقاتليه وينحسب كل حساب لراوغات وخداع عبد الرحمن وكيف لا وهو الذي ورث ذلك عن أهله الأعراب بني أمية والتي عرفت بتعصبهما القومي وبطشهما الدموي وجورها على الموالي، كل ذلك كان مخالفة لأبسط القيم الأخلاقية وللدين الحنيف.

ويُعد عبد الرحمن حملة أخرى من أكثر الحملات شدة وعدداً وقوة بقيادة تمام بن علقة وعبد الله بن عثمان فلقيهما الثائر الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة كانت فيها الغلبة للفاطمي المكتناسي وهزمت جيوش عبد الرحمن وعادت البقية إلى

قرطبة، بعدها خرج الفاطمي يبشر بدعوته وثورته ضد عبد الرحمن ويدعوا إلى العدل والإنصاف في حكم الأندلس خاصةً التعامل بحسن نية ومساواة مع البربر.

وهذه المرة التجأ عبد الرحمن إلى خطط خبيثة وخدعة لقتل الفاطمي حيث رأى أن الحملات العسكرية التي استغرقت عشرة سنوات لم تحقق شيئاً بالإضافة إلى إنهاك الدولة اقتصادياً وبشرياً وأن الفاطمي لا زال ثائراً تحيط به القبائل البربرية بقوة، لهذا فقد لجأ إلى تدبير مؤامرة داخلية يقوم بها أصحاب الثائر الفاطمي للقضاء عليه، حيث قاما بهذه المهمة اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد حيث انقضوا عليه ذات يوم وقتلاه واحتزا رأسه وحملاه إلى عبد الرحمن في قرطبة وبذلك انتهت ثورة الفاطمي سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م. وهذا الخط التأمري الأموي استخدمه سابقاً معاوية مع خصومه حيث سُمّ مالك الأشتر عندما ولأه الإمام علي عليه السلام مصر ثم سُمّ الحسن بن علي عليه السلام عن طريق زوجته، واستخدمه أيضاً هارون الرشيد في قتل إدريس العلوى مؤسس دولة الأدارسة في المغرب عن طريق قارورة عطر.

ولكن مع الأسف هناك بعض المؤرخين لا يذكرون هذه الثورات بإنصاف ويعتبرون الدعوة للتسيع بمثابة خروج عن الإسلام، لهذا نجد ذكر ثورات الشيعة في كتب المؤرخين يشوبها السخرية والتعصب، مما يدعوا إلى مراجعة وتحقيق كتب التاريخ من قبل العقلاة وأهل العلم.

وكان قد تحالف مع الثائر الفاطمي ثائر آخر هو دحية الغساني وسيطر على بعض حصون البيرة (غرناطة) وكان سابقاً مواليًّا لعبد الرحمن الداخل ولكن لما رأى بشاعة ودموية عبد الرحمن وأنه لم يتورع عن قتل أصدقائه وحلفاءه ونقض الواثيق، انفصل عنه والتحق بثورة شقيا الفاطمي المكناسي، ولكن عبد الرحمن أرسل إليه جيشاً كبيراً فتحصن الثائر في البيرة (غرناطة) ودافع بشدة وقوة ودارت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار جيش عبد الرحمن وقتل الثائر دحية الغساني.

* ثورة الحسين بن يحيى الانصاري - بن سعيد بن عباد -

ثار سنة ١٦٠ هـ في سرقسطة Zaragoza وخلع طاعة عبد الرحمن، ويُذكر أن جد هذا الثائر سعيد بن سعد كان من شيعة الإمام علي عليه السلام وقد ولَى له اليمين وولى أخيه

قيس بن سعد مصر، ويدرك ابن حزم بأن من سلالة هذه الأسرة الشاعر أبو بكر عباد بن ماء السماء الذي أصبح فيما بعد شاعر الحمويين والناطق بلسان الشيعة أيام ملوك الطوائف، كما يذكر بعض المؤرخين لقب الحسين بابن عباد الخزرجي.

وثار مع الحسين بن يحيى وإلي برسلونة وجيرون سليمان بن يقضان الكلبي الملقب بـ(الأعرابي) وتحالفاً على قتال عبد الرحمن الداخل وخلعه وكان ذلك سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م، وكان عبد الرحمن في ذلك الوقت مشغولاً في مقاتلة الثائر الفاطمي شقياً عبد الواحد في الجنوب والذي سيطر على شتبيرية وماردة وغيرها، فأرسل عبد الرحمن جيشاً إلى الشمال بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي فهزمه سليمان وأسره وتفرق جيشه وكان ذلك سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م، بعدها استفحلاً أمر الثورة في الشمال في برسلونة وقويت شوكة الحسين بن يحيى وسلامان، ولكن هؤلاء زعماء الثورة لم يطمأنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمون من عزم عبد الرحمن الأعور من انتقامته وحيله وأنه سوف يجيش الجيوش لقتالهم، لهذا فكرروا في التحالف مع الإفرنج فقد انتخب سليمان الأعرابي مع عدد من الزعماء الثوار للقاء شارلمان وذهبوا للقاءه وكان يقيم يومئذ في بلاطه في مدينة بادربون من أعمال وستفاليا شمال ألمانيا وتم اللقاء في ربيع سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م، وعرض عليه سليمان المحالفه لقتال عبد الرحمن وأن تكون الولايات الشمالية الأندلسية تحت إمرة شارلمان وتعهد بمعاونته وتسليم المدن إليه، وأن يتحرك بجيشه لغزو هذه المدن والعمل على استقرارها كما يسلم إليه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد قائد جيش عبد الرحمن.

وكان مع سليمان الأعرابي ولد يوسف الفهري حاكم الأندلس السابق مع صهره جاء ليسعياً كذلك إلى خلع عبد الرحمن، والروايات العربية واللاتينية تجمع على أن سليمان وحلفاؤه أعلنوا خضوعهم لملك الإفرنج وانصواتهم تحت رايته، في حالة دخوله إلى شمال الأندلس مثل برسلونة وسرقسطة وغيرها، ولبني ملك الإفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد عنواناً للثقة والتحالف فسجن في إحدى القلاع الفرنسية.

وكان سليمان يعمل مستقلًا لنفسه لتحطيم سيادة قرطبة والاستقلال بما في يديه تحت رعاية وحماية ملك الإفرنج، ولكن ملك الإفرنج كانت له مشاريع أخرى،

وكانَت السياسة الإفرنجية ترمي إلى تعضيد روح الثورة وزرع الخلافات في إسبانيا المسلمة، ولا سيماً منذ انهارت سيادة الإسلام في جنوب فرنسا وارتد المسلمين إلى ما وراء البرنيه. ويُذكر بأن المسلمين منذ بداية الفتح الإسلامي لاسبانيا كانوا قد سيطروا على جنوب فرنسا وحكموها حوالي ثلاثين سنة وقيل نصف قرن، ولكن عندما انهزوا في معركة بواتيه القربيّة من باريس وقتل قائدّهم عبد الرحمن الغافقي انسحبوا منها إلى داخل إسبانيا إلى الأبد.

وكانَت لسليمان الأعرابي علاقات مع ملك الإفرنج منذ سنة ٧٦٠م وكان يسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله كما كان غيره من الثوار يسعون بنفس المسعى وكان الإفرنج يسّارعون إلى تلبية هذه الدعوات ويتخذونها ذريعة للتدخل في شؤون إسبانيا المسلمة، ويُذكر بأنَّ الخلفاء العباسيين كانوا في علاقة وثيقة مع ملوك فرنسا وكان هنالك تبادل للسفراء وكانوا يطمّحون إلى محاصرة عبد الرحمن الداخل وإسقاطه وعوده الأندلس إلى الخلافة العباسية، وفعلاً كانت هناك دعوات تبذل لنشر الدعوة العباسية في الأندلس وكان يترأس ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي حيث نزل في مدينة (تممير) يدعو للخلافة العباسية والتحريض ضد عبد الرحمن الداخل.

وبعد الاتفاق الذي تم بين ملك الإفرنج وزعماء الثوار بقيادة سليمان الأعرابي فقد حشد شارلمان جيشاً ضخماً في العدة والعدد، بحيث يذكر المؤرخون بأنَّ الحملة بهذه الضخامة كان شارلمان يرمي من ورائها السيطرة على قرطبة وإسبانيا كلها أو على الأقل نصفها الشمالي، وببارك البابا هادريان الحملة واتخذت في الظاهر طابعاً دينياً، وتحرك شارلمان بجيشه الضخم نحو إسبانيا في ربيع سنة ٧٧٨م وقسم جيشه إلى قسمين، الأول عبر جبال البرنيه من الناحية الشرقية وعبر القسم الثاني بقيادةه من الناحية الغربية من الطريق الروماني القديم فوق جبال آكام (جان دي لا بور) الشاهقة التي تشرف على مفاوز (مفاريق) رونسفال الوعرة، على أن يجتمع الجيшиان على ضفاف نهر أبرة Ebro أمام مدينة سرقسطة حيث يلتقي شارلمان بحلفاء المسلمين الذين اتفقوا معه وهم ينتظرون قدوته، وكان في هذه الرحلة قد حاصر شارلمان بمبلونه عاصمة نافارا Pamplona وأخذها بالقوة، وهذه إشارة إلى أنَّ شارلمان

كان يهدف بحملته إلى السيطرة على المدن النصرانية والإسلامية على حد سواء وليس له أهداف دينية كما هو ظاهر من الحملة.

وتذكر بعض المصادر بأن سليمان بن يقظان (الإعرابي) كان يتردد عندئذ بانتظام على بمبلونه وأنه وفقاً لتعهدهاته سلم الرهائن إلى شارلمان التي اتفقوا عليها سابقاً، وبعد الاستيلاء على بمبلونه سار شارلمان مع سليمان إلى سرقسطة وكان الجيش الآخر قد اخترق منطقة جيرونة وبرسلونة واتجه غرباً نحو سرقسطة حيث التقى بالقوات التي يقودها شارلمان.

وهنا نقف عند نقطة مهمة وهي العودة إلى التأثر الشيعي الحسين بن يحيى الأننصاري والي وحاكم سرقسطة، فقد كان هذا التأثر حليفاً لسليمان منذ البداية وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الإفرنج وبالرغم من أنه لم يذهب إلى بلاط الملك في بادربون ولا إلى بمبلونه فقد كان موافقاً على العهود التي قطعها، ولكن الذي حدث هو أن الحسين رأى أن سليمان اتخذ مكان الصداررة والزعامة التي اتشح بها إزاء الإفرنج، فنسبت بينهم الخصومة كما أنه خشي التورط في حلف الإفرنج فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الإفرنج إلى مدنته، لهذا فإنه قد تحسن في سرقسطة وهياً جيشه للدفاع عنها، وعندما وصل شارلمان وحليفه سليمان رفض الحسين أن يستقبله بل وجدا المدينة متأهبة للدفاع والمقاومة وهنا تسجل نقطة ذكية ومتازة للتأثير الأننصاري حيث ما شاهده من حصار بمبلونه وأخذها بالقوة رغم أنها نصرانية من قبل شارلمان، كانت تلك درساً واضحاً لقراءة نوايا وأهداف الإفرنج في حملتهم هذه والشك في حلفهم مع الثوار المسلمين.

وفي نفس الوقت قدم سليمان إلى شارلمان عدد كبير من الرهائن من الأشراف والأعيان وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد لإثبات حسن التوايا والصدق في التعهادات، ولكن سليمان لم يستطع إقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ولم يستطع شارلمان في نفس الوقت الاستيلاء عليها حيث ردت المدينة كل هجمات الإفرنج وانتصرت عليها، وعجز سليمان أن يتحقق شيئاً في وعوده من تسليم المدن والخصوصون الواقعة في تلك المنطقة، كما أن شارلمان لم يشاً أن يخوض معارك في تلك الأرضاب الصعبة وهو لم يتهيأ لها، وارتاد من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه فقبض عليه.

وكانت وفقة الحسين الثائر الشيعي وصموده مثالاً للشجاعة والفداء وحرصاً على عقيدته وشعبه حيث لا سامع الله لو كان قد فتح أبواب سرقسطة فسوف يصير مصيرها مثلما فعلوا في بمبلونه من حرق وتدمير وإبادة دماء ويضاف على ذلك ستكون المناطق الشمالية من إسبانيا تحت سيطرة الإفرنج.

وأخيراً قرر شارلمان الانسحاب والعودة إلى فرنسا، غير أن الكثير من الروايات تذكر بان سرعة الانسحاب يعود إلى أسباب أخرى وهي أن السكسون المارقين حينها علموا أن الملك شارلمان في سرقسطة شقوا الطاعة وخرموا وأحرقو الأراضي حتى ضفاف الراين فلما سمع الملك بذلك عاد مسرعاً إلى فرنسا.

ارتدى شارلمان مع قواته وفي ركبته سليمان أسيره وعدداً آخر من الرهائن وسار شمالاً نحو نافارا فدخل بمبلونه مرة ثانية وهدم حصونها وأسوارها ثم غادرها، ولكن أهل نافارا لما رأوا ما حل في بلادهم من دمار وخراب جمعوا فلو THEM وبالتعاون مع المسلمين وقرروا الانتقام ومهاجمة جيش شارلمان، وتذكر الرواية العربية بأن شارلمان اتجه عائداً إلى جبال البرنيه عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزاري، وأن ولدا سليمان مطروح وعيشوN عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الإفرنج وجمعوا في الحال قوات أيديها وأتباعه وكذلك قوات من جيش الحسين وسار هذا الجيش في أثر ملك الإفرنج يحاول مهاجمته وإنقاذ سليمان من أسره، وكان عبور شارلمان من نفس الطريق الذي أتى منه أي مفاوز رونسفال ويقع في عمر رونسفال Portus Roncesvalles والذى يسمى في العربية بباب شيزورا أو بباب الشزاري ciserei ويقع في طرف البرنيه الغربي شمال شرق بمبلونه وعلى قيد عشرين كيلومتر منها وهو أحد مرات عدة كانت تستعمل منذ الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب، وهنا حدثت المفاجأة ذلك أن الجيش الإفرنجي ما كاد يبدأ عبور الجبال حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة موجعة وفصلوا عنه مؤخرته وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى وفيهم سليمان بن يقضان.

وتذكر المصادر اللاتينية بأن الهجوم كان بالتعاون بين المسلمين بقيادة أولاد سليمان وبين البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزل الإفرنج في بلادهم من دمار وعبث، حيث فاجئوا الجيش في هذه المرات الصعبة والتي أدرى بها أهل سكان نافارا أو البشكنس،

وكان هذا الهجوم المفاجئ قد فصل مؤخرة الجيش الإفرنجي ومزقته شر تزييق وهلك عدداً عظيماً من سادة الجيش الإفرنجي وفرسانه منهم القائد الكبير رولان Rolan ولم تسمح المفاجئة المذهلة السريعة بأي عمل أو محاولة منتظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة، وكانت نكبة مروعة لبث صداتها يتعدد مدى عصور في أمم الغرب النصرانية، وتضع الرواية الإفرنجية تاريخ الموقعة في ١٨ أغسطس م ٧٧٨ / ذي القعده سنة ١٦١ هـ.

وبعد نكبة جيش الإفرنج وقع خلاف شديد بين الحسين بن يحيى الأنباري وسليمان بن يقضان والي برشلونة انتهت الخصومة بقتل سليمان وهو في المسجد، وبذلك انفرد الحسين الثائر في حكم سرقسطة وما حولها وأخذ ينظم شؤون دولة ويحصن قواطعه، ولكن عبد الرحمن الداخل سار بجيش ضخم سنة ١٦٢ هـ / ٧٨١ إلى سرقسطة وحاصرها وفي نفس الوقت وفدى عليه عيسى بن سليمان وقد كان قد فر عند مقتل أبيه إلى أربونه وانضم إليه بمن معه في مقاتلة الحسين، فلما استدأ الحصار بالحسين طلب الصلح وقدم ابنه سعيد رهينة فأجابه عبد الرحمن ملتمسه وأقره والياً على سرقسطة، وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق، ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة توجس شرًّا من عيسى بن سليمان فأمر بقتله.

ولما رأى الحسين ما فعله عبد الرحمن بعيسى بن سليمان وأتباعه ثم رأى سعيد قد عاد إليه سالماً عاد للثورة مرة أخرى وسيطر على سرقسطة وما حولها، ولكن عبد الرحمن عاد إليه بجيش بقيادة غالب بن تمام بن علقمة فخرج الحسين لقتاله ووقعت بينهما معارك شديدة هُزم فيها الحسين ثم انسحب إلى داخل المدينة وتحصن فيها بكل ما أوي من قوة، ولكن غالب استمر في حصاره غير أنه لم يستطع اقتحام المدينة، وفي العام الثاني سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة وضر بها بالمنجنيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها واقتحمتها عنوة وقبض على الحسين وجماعة من أصحابه وقتلهم جميعاً وشرد الكثير من أهلها، وبهذه الواقعة انتهت ثورة الحسين بن يحيى الأنباري والتي تعد إحدى الثورات الكبير بعدما دامت سبعة سنوات وهددت عرش بنى أمية في الأندلس.

﴿ثورة احمد بن معاوية بن هشام - المعروف باقسط -﴾

وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن وقد ثار سنة ٢٨٨هـ في زمان الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الداخل، وكانت ثورته في منطقة الجوف وبالتحديد في أحواز طليطلة وطليبرة، وقد تأثرت بالدعوة الفاطمية تأثيراً كبيراً ودعا إلى التشيع وحب آل البيت، كما تذكر بعض المصادر أنه ادعى أنه المهدي وأنه جاء لإصلاح هذه الأمة بعدما عم فيها الجور والفساد، فالتقت حوله جموع غفيرة من البربر وأعلن الجهاد ضد النصارى، وقدم إلى مدينة ثامورا لافتتاحها *Zamora* وكتب إلى الفونسو رسالة عنية يدعوه بها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى، وكان الفونسو يومئذ في قواته على مقربة من ثامورا فسار إلى لقاء المهدي وقواته، ودارت المعركة في مخاض نهر دويرة أمام أسوار ثامورا فهزهم النصارى أولاً وارتدوا وحاصر المهدى ثامورا.

ولكن حدثت خيانة في جيش المهدى أثناء الحصار حيث انسحب زعماء البربر في قواتهم خشية من تفوقه عليهم وغدره بهم، وصمد ابن القطب فيمن بقي معه، ثم نشببت معركة بينه وبين النصارى انتهت بقتل ابن القطب وتمزيق قواته واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب ثامورا، وكان ذلك في شهر رجب سنة ٢٨٨هـ / يوليو ٩٠١م.

﴿ثورة عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر -﴾

هو حفيد عمار بن ياسر صاحب الإمام علي عليه السلام والذي قُتل في معركة صفين، وقد كان عبد الله أحد قواد موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس، ويعتبر واحد من البيوت العربية الشيعية التي يعود لها الفضل في انتشار التشيع في الأندلس، وقد تولى عبد الله ولاية البيرة (غرناطة) وحسب التقسيم للقبائل حول المدن الإسبانية فقد سكنت قبائل يمنية في البيرة، ويدرك ابن حيان بأن يوسف الفهري وإلي الأندلس عندما سمع بوصول عبد الرحمن الداخل (الأعور) ودخوله الأندلس كتب إلى عبد الله بن سعيد يأمره بالقبض على عبد الرحمن، وقد أجابه ابن سعيد أنه من الصعب اتخاذ أي إجراء ضد عبد الرحمن الذي كان محظياً من قبل مواليه وعدد كبير من المؤيدين وأنه لم يتمكن أحد من التصدي له سوى الأمير يوسف نفسه.

وقد علم مواليبني هذه المراسلات ولهذا فقد اخفوا عبد الرحمن في المناطق الجبلية المجاورة، وفي الوقت نفسه حاولوا تضليل يوسف الفهري بالكتابة إليه بأن عبد الرحمن لم يعبر الأندلس طالباً الملك والسلطان كما يظن الأمير بل جاء يطلب الثراء والأمان بين مواليه، كما يُذكر بأن عامل البيره عبد الله بن سعيد توجه بجيش كبير وهاجم عبد الرحمن وأنصاره وحدثت بينهما معركة شديدة انتهت بانتصار عبد الرحمن ومقتل عبد الله بن سعيد.

ثورة عمر بن حفصون -

يعتبر عمر بن حفصون من أعظم ثوار الأندلس الذين ثاروا وتمروا على دولةبني أمية وكان ظهوره في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٨٥٢ هـ / م ٢٨٨)، وقد ظهر عمر بن حفصون في منطقة تسمى جبل بيشرت والتي تقع بين رندة ومالقة جنوب الأندلس، ويُذكر أنه سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصراوي قوطي فجده عند الفتح الفونسو القس وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام، وكان والده حفصون ذا مال وجاه ونشأ ولده عمر فاسداً سيء السيرة عنيفاً يعتدي على المال والنفس، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لهواه وغيه والتلف حوله جماعة من الفساد والبغى، فألف منهم عصابة معادية ناهبة، ونزل بمكان منيع بجبل بيشرت الواقع شمال شرق جبال رندة وكان ذلك في سنة ٢٦٧ هـ / م ٨٨٠.

ويُذكر بأن سبب ظهور عمر بن حفصون وثورته في هذه المنطقة هو اضطرام الفتنة في لورة - ريه - والجزيرة بسبب عنة يحيى بن عبد الله بن يحيى عامل الأمير محمد الأموي في ريه، وفرض الضرائب على أهلها وقسوطه وبطشه، لهذا فقد امتنع الناس عن طاعته واعتاصموا بجبلهم وحدث بينهم وبين جيش الوالي معارك كثيرة بدأت سنة ٢٦٥ هـ، وفي هذا الجو المضطرب ظهر ابن حفصون وأخذ يغير على أطراف ريه ويوسعها تدريياً وسبياً ونهياً، ثم يعود إلى حصنه في جبل بيشرت وقد انظم إليه ثائراً آخر يدعى ابن حمدون ونظماً جيشهما واشتباكاً مع جند الأمير محمد فانهزم الثوار وجرح ابن حفصون، غير أن الأمير محمد توفي سنة ٢٧٣ هـ، مما أعطى لابن حفصون فرصة كبيرة لاستعادة تنظيم مقاتليه ثم أخذ يهاجم معظم الحصون الواقعة في المنطقة حتى

استطاع أن يسيطر على ريه ورندة واستجه ثم سيطر على أرشدونه ومالة وجيان وغيرها، وأخذ يطمح أن يسيطر على الأندلس كلها.

ولكن قوات الأمير الأموي المنذر بن محمد الذي جاء بعد والده المتوفى استطاع استعادة الكور والخصوص التي استولى عليها ابن حفصون ثم حصره في جبل ببشر وأجبره على الاستسلام فطلب الأمان من الأمير المنذر وعرض التسليم والخضوع فأجابه الأمير وأعطاه الأمان، ولكن ابن حفصون فر من الجيش وعاد مرة ثانية إلى حصن ببشر وامتنع بها وخان العهد والأمان الذي أعطاهم الأمير له، وهكذا بقي ابن حفصون في كروفر مع الحكومة المركزية دون ملل أو كلل حتى وفاته سنة ٦٣٠ هـ / ٩١٨ م، وقد دامت ثورة ابن حفصون حوالي ٤٠ سنة حتى مجيء الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان المؤرخون العرب يعدون وفاته فاتحة خير للمسلمين وطالعة سعد واجتثاث للفتنة، وقد حاول أبناء عمر بن حفصون السير على نهج أبيهم في الثورة ولكنهم لم يستطعوا مواجهة عبد الرحمن الناصر فخضعوا له وأطاعوه وسلموا قلاعهم وحصونهم إلى الأمير.

وكان ابن حفصون ينتمي إلى المولددين وهم الأسبان الذين اسلموا منذ الفتح، وقد كانوا رغم اندماجهم بالمجتمع الإسلامي يحتفظون دائمًا بنزعة استقلالية واضحة ويعغضون العرب والبربر معاً، ويذكر المؤرخين بأن ابن حفصون ارتدى عن الإسلام هو وأسرته سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م، واعتنت النصرانية واخذ له اسمًا نصرانياً، لهذا فقد رأى المسلمون أن قتال ابن حفصون هو نوع من الجهاد.

وفي عام ٩٢٨ هـ / ٢٨٥ م، خرج عبد الرحمن الناصر من قرطبة إلى ببشر معقل ابن حفصون سابقاً لتفقد شؤونها ودخلها وجال في أرجائها وظهرها من آثار ابن حفصون فصل في مسجدها الجامع وأمر أن تقام به الصلاة، وكان قبر ابن حفصون في المدينة فأمر عبد الرحمن بنبيس القبر وخرج جثته وفحصها فتبين من هيئتها وكونه ملقياً على ظهره مشبوك الذراعين على الصدر مستقبلاً المشرق أي أنه دُفن على دين النصارى، وشهد بذلك الفقهاء والناس والعسكر وغيرهم، ثم أمر عبد الرحمن بحمله إلى قرطبة وعلقت هناك جثته على أحد أبواب المدينة، ثم أمر عبد الرحمن بالقبض على أرختنا ابنه عمر بن حفصون وإعدامها لارتدادها عن الإسلام.

وتذكر بعض المصادر بأن ابن حفصون كانت له علاقات ودية مع الدولة الفاطمية، وأنهم قد أرسلوا إليه داعين لمساعدته في حربه ضد الأمويين وأمدوه بالأموال والسلاح، وكان الفاطميون يفكرون بالسيطرة على الأندلس وجعلها جزء من دولتهم ولهذا فهم يسعون إلى دعم الثوار لإسقاط الحزب الأموي في الأندلس بغض النظر عن توجهاتهم السياسية أو المذهبية.

ولكننا نجد هناك كثير من التناقضات التاريخية في الحديث عن هوية هذا الثائر، فمنهم من يصفها بأنها إحدى الثورات الشيعية التي قام بها البربر ومنهم من يقول أنه انتحل صفة المهدي وأنه مخادع وأنه اعتنق النصرانية وأن أصله غوطى نصراوى وهكذا.

ولكن الواقع التاريخية لهذه الثورة أثبتت انه رجل متقلب ليس له دين أو فكر أو مذهب وإنما كان يطمح إلى الوصول للسلطة بأي ثمن. لهذا نرى أنه مرة دعى إلى الخلافة العباسية ثم إلى الخلافة الفاطمية ثم دعا إلى إبعاد العرب والبربر من الحكم والسلطة وأخذ الثار للمولددين الذين استعبدوهم وهكذا.

سقوط الخلافة الاموية

لما توفي المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م، في مدينة سالم ودُفن فيها، بُويع ابنه عبد الملك بالخلافة وفي هذه المرحلة طويت آخر صفحة من صفحات الأزدهار والقوة وآخر صفحة من الحكم الأموي في الأندلس بل في العالم الإسلامي كله، ثم فتحت صفحات أخرى من الانقسامات والفتن وظهور إمارات كثيرة مستقلة وهو ما يطلق عليه بعصر الطوائف.

ولما توفي عبد الملك تولى السلطة أخيه عبد الرحمن الملقب شنشول أو سنجول و كانت أمه ابنة ملك نافارا **Sancho Navara** قد أهدتها الملك إلى المنصور فأسلمت وأحسنت إسلامها وكانت امرأة صالحة ذكية، وكان شنشول سيء التصرف، به طموحات لا تتناسب مع فهم الواقع السياسي للبلد وإمكاناته، إلى جانب ذلك كان خليعاً ماجناً لا يتورع عن شرب الخمر علانية، لكل ذلك ونظراً لصفات هذا الحاكم السيئة وغيرها من الأسباب قامت الفتن والاضطرابات في زمانه، ففي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م، توجه شنشول بحملة عسكرية إلى الشمال لتأديب المسيحيين الذين أخذوا يقومون بغارات متعددة على الأراضي الإسلامية، وقد علم أهل قرطبة خاصة الناقمين على شنشول بخروج شنشول من قرطبة والتوجه إلى الأراضي الشمالية فانتهزوا الفرصة وأحاطوا بالقصر وأعلنوا الثورة واستولوا عليه.

ولما علم شنشول بذلك عاد إلى قرطبة ولما وصلها تفرق جنده منه فاضطر إلى الالتجاء لأحد الأديرة ثم قُبض عليه وُقتل، ثم بُويع محمد بن هشام المرواني بالخلافة ولقب بالمهدى سنة ٣٩٩هـ، وما كاد يستقر أمره حتى شرع بإتباع سياسة أزال كل أثر للنفوذ البربرى وجند أفريقيا، ولكن زعماء البربر سخطوا عليه نتيجة هذه السياسة الظالمة فثاروا عليه بزعامة رشيد بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ولكن محمد تمكّن من الانتصار عليهم وقتل عدد منهم ومن ضمّنهم رشيد وفرّ الباقيون إلى طليطلة.

ومن هناك أخذ الزعماء البربر يستعدون لمعاودة الكرة بقيادة سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وهو ابن أخت رشيد المقتول، ثم توجه سليمان بجيشه البرברי إلى قرطبة والتقوى الجيشان في معركة طاحنة في ظاهر قرطبة، وتغلب سليمان فيها على محمد المهدي ثم سار بجنته إلى قرطبة ونصب نفسه خليفة وبايده الناس بالخلافة سنة ٤٠٠هـ وتلقب بالمستعين بالله.

وكان سليمان يعتمد على قوة البربر فانتقل بجملة جيشه البريري إلى مدينة الزهراء التي تبعد حوالي ٧ كيلومترات عن قرطبة حتى يبعدهم عن أهل قرطبة حيث كانوا في حذر وعدم رضا من عودة البربر إلى الحكم مع سليمان، وحتى يزيل سليمان الخلاف بينه وبين أهلها تمهدأً لدخولها في طاعته ولكنه لم ينجح في ذلك، ثم حدثت فتن أخرى و المعارك بين الفرقاء من البربر الأندلسيين والعامريين وأنصارهم الإفرنج و تعرضت قرطبة للدمار والخراب كما تعرضت للمجاعة وانتشار الأوبئة ثم فرار أهلها إلى المناطق الجبلية المجاورة لها لأنها أكثر استقراراً، وأخيراً عاد سليمان مرة ثانية إلى الحكم وإلى قصر قرطبة بطلب من فقهائها وزعمائتها مع جيشه البريري واستقر فيها في ٢٧ شوال سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م.

ويُذكر أن هشام المؤيد الأموي ظهر في قرطبة مطالبًا بالخلافة وقتل محمد بن هشام المهدي وبعث برأسه إلى سليمان لإرهابه، ولكن سليمان استغل ذلك وحرض خصوم هشام على الانتقام منه، ثم توجه سليمان مع جيشه من مدينة الزهراء إلى قرطبة فانقضوا على المدينة وخربوها، ويقال أن الخليفة هشام المؤيد قُتل في هذه المعركة، ثم أصبح سليمان حاكم الأندلس وأخذ ينظم شؤون الدولة فعزل جميع الولاة السابقين ونصب بدلاً منهم أنصاره البربر وأقاربه، وقد اعتمد سليمان في حكمه وسلطته على بنو حمود العلوين وهم من أكبر زعماء البربر وقد استقروا في شققنة ضاحية قرطبة بينما استقر سليمان في مدينة الزهراء، ثم قسم سليمان بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية إرضاءً لهم فأعطى البيرة (غرناطة) لحبوس بن ماكس الصنهاجي وذريته وأعطى جوفي البلاد لغراوة وأعطى سرقسطة لنذر بن يحيى التجيبي الذي ساعد سليمان في فتح قرطبة، وأعطى جيان لبني برزال وبني يفرن، وأعطى شدونة ومورور لبني دمر وازداجة.

ثم منح علي بن حمود ولاية سبتة والقاسم بن حمود أخيه ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء، وبذلك غلب العنصر البربرى على دولة سليمان المستعين مما حمل فتیان العامريين على الهرب إلى شرق الأندلس خوفاً على أنفسهم من البربر، وأقاموا لهم دولة في شاطبة ودانية ولوরقة وميورقة والمرية.

ويذكر ابن الخطيب الأندلسي (١٣١٣هـ / ١٢١٣م) أن بعض العامريين والمؤيدين هشام الخليفة المقتول أرسلوا رسالة إلى علي بن حمود أمير سبتة وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد بخطه عهد فيها بأمر الخلافة بعده إلى علي بن حمود ثم أنهم تعهدوا بتذليل الصعب وھونوا له أمر الاستيلاء على الخلافة، وأشار إليه حبوس الصنهاجي صاحب البيرة وخیران العامري صاحب المرية بالتوجه إلى مالقة والاستيلاء عليها، بينما يذكر ابن عذاري أن هشام المؤيد: (عندما رأى من اضطراب أمره وتيقن من انصرام دولته، صر إلى علي بن حمود ولاية عهده، وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسله إلى سبتة بذلك سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر فيه إلى أوانه وبلغ زمانه). ولما بلغ سليمان المستعين بما تحالف علي بن حمدون وخیران العامري مع تأييد حبوس الصنهاجي صاحب البيرة عليه وعلم بمسير جيشهما إليه فعظم عليه الأمر وخرج بمن تبقى من رجاله للقاء جيوش ابن حمدون وخیران واشتبك الفريقان في محرم سنة ٤٠٧هـ فانهزم جيش سليمان وقبضوا عليه وعلى أخيه وقتلا، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في ٢٢ محرم سنة ٤٠٧هـ / ١٦١٠م، وقد أظهر وثيقة هشام المؤيد وعهده إليه.

واجتمع زعماء القبائل البربرية والعربية في باب السدة في قصر قرطبة وبايعوا علي بن حمود بالخلافة، في ٢٣ محرم سنة ٤٠٧هـ وتلقب بالناصر لدين الله، وبذلك تم تأسيس أول دولة علوية شيعية في الأندلس ينطرب باسمها على منابر الأندلس وقد سيطرت على معظم البلاد وبايعتها غالبية الفرقاء من العرب والبربر. وكان الحموديون يعودون في نسبهم إلى إدريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وسنأتي على ذكرها تفصيلاً لاحقاً

الخلافة العلوية في الأندلس دولة بنو حمود

بعد سقوط دولة الأدارسة في المغرب وأصبحت المغرب ولية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة، تفرق كثير من زعماء الأدارسة في مختلف الجهات ولاذوا بالاختفاء بعيداً عن بطش الحكام الجدد، وأخذ هؤلاء يترقبون الفرص لاستعادة سلطانهم وملكيتهم الذي أخذه الأمويون، وهاجر عدد كبير من هؤلاء الزعماء إلى الأندلس من البربر والمغاربة وانضموا تحت لواء الدولة العاميرية في أواخر عهدها، وشكلوا الجيش الضارب القوي للمنصور وساعدوه في دعم سلطنته ولم ينسوا تشيعهم بل بلغ نفوذهم أن كانت الشريعة السننية لا تطبق عليهم.

ولما انهارت الدولة العاميرية وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة التي اضطررت حول السلطة والخلافة، وكانت الخصومة بين الأمويين والبربر تضطرم منذ زمن بعيد لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية ومن جهة أخرى أن البربر غالبيتهم يتبنون إلى التيار الشيعي الذي بدأ ينتشر بشدة في المغرب، وكان التشيع منذ نشأته في الشرق معادياً للحزب الأموي.

وقد اصطف البربر إلى جانب سليمان المستعين في صراعه مع محمد بن هشام الملقب بالمهدي والذي سيطر على الخلافة في ١٧ جماد الآخر سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م، وكان من بين زعماء المغاربة الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة رجالان من عقب الأدارسة هما علي والقاسم أبناء حمود بن ميمون بن حمود، ويقول ابن حزم القرطبي: (إذ يرجع نسب علي والقاسم إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذاري وابن الخطيب.

أما المقرئي في كتابه (فتح الطيب) فيقول: (وكان من أمراء البربر المعارضين لسليمان المستعين علي بن حمود من بنى علي بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي

بن أبي طالب عليه السلام هرب من هارون الرشيد إلى البربر فتبرير ولده، وبني ابنه إدريس مدينة فاس..).

ولما استتب الأمر لسليمان المستعين انتقل من قرطبة إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواده البربر وجندهم فاحتلوا وما حولها، ونزل علي والقاسم أبناء حمود قائداً لفرق العلوية بشقنقدة ضاحية قرطبة، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش السلطة الحقيقة فتولوا مناصب الحجابة والوزارة وسائر المناصب الهامة ولم يبقى سليمان من السلطة إلا الاسم، ورأى سليمان أن يقطع للبربر كور الأندلس وكانوا ستة قبائل رئيسية وقد ذكرنا ذلك سابقاً، وبهذا فقد سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى وغلب عليها العنصر البربري على العربي.

وكان علي بن حمود الحسني قد ولّ حكم سبتة وولى أخوه الأكبر القاسم حكم الخزيرة الخضراء وطنجة وأصيلاً، وكان علي بن حمود يطمح على أكثر من حكم مدينة ويطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية وعدم تأييد أهل قرطبة سليمان وحكومته، يضاف إلى ذلك أن هناك كتاب من هشام المؤيد الخليفة الأموي المخلوع مرسل إلى علي بن حمود يعهد فيه الخلافة إليه ويطلب منه التأثر في حالة قتلته، وقد نقل هذه الرسالة عدد من المؤرخين، وذكر المقربي: (وكان المؤيد هشام الأموي يستغل بالملحّم ووقف، أن دولةبني أمية تنفرض بالأندلس على يد علوى أول اسمه عين، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحو كثيراً من محاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود، وبلغ هشام المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبة، فدس إليه أن الدولة صائرة إليك وقال له أن خاطري يحدثنـي أن هذا الرجل يقتلـني يعني سليمان فإن فعل فخذ ثأري)، وكان الفتياـن العـاميـن خـصـومـ سـليمـان حـلفـاء طـبـيعـين عـلـيـ بنـ حـمـودـ وـقـدـ رـاسـلـهـ خـيرـانـ صـاحـبـ المـرـيـةـ وـحـثـهـ عـلـيـ أـخـذـ الـخـلـافـةـ وـأـظـهـرـ لـهـ كـتـابـاـ زـعـمـ أـنـ تـلـقـاهـ مـنـ الـخـلـيـفـةـ الـمـخـلـوـعـ هـشـامـ المؤـيـدـ يـولـيهـ الـعـهـدـ وـيـطـلـبـ إـلـيـهـ أـنـ يـنـقـذـهـ مـنـ الـأـسـ).

ويقول المؤرخ ابن حيان: (إن هشام المؤيد لما رأى اضطراراً أمره وتصرم دولته قد منح علي بن حمود ولاية العهد وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسل إليه ذلك بسبعين سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر حتى يحيى الأوان لذلك)، فذاعت دعوة علي بن حمود ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل عامر بن فتوح الفائقى مولا الحكم

المستنصر ووزير ولده المؤيد وكان يومئذ حاكماً للقاهرة، وكتب إليه خيران أن يعبر إليه فعبر علي بن حمود سبعة إلى الجزيرة الخضراء في أواخر سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٦ م.

وسار في أتباعه من البربر إلى ملقاً فسلمها إليه عامر بن فتوح ودعا إليه بولاه عهد المؤيد حالة ظهوره حياً وسار خيران في قواته والتقي بعلي في ثغر المنكب الصغير ما بين ملقاً والمرية، فجمع الزعيمان قواتهما ونظم خطتها للزحف على قرطبة وبويع على طاعة المؤيد، ثم انظم إليهما زاوي بن زبزي وحبوس الصنهاجي في قوة من ببر غرناطة، وخرج سليمان المستعين من قرطبة بجيشه للقائهم والتقي الفريقان في ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ونشبت بينهما معركة شديدة انتهت بهزيمة سليمان وقتل عدد من أنصاره وكان سليمان وأبيه وأخوه عبد الرحمن بين الأسرى.

ودخل علي بن حمود قرطبة في الثامن من محرم سنة ٤٠٧هـ / أول يوليو سنة ١٠١٦م، وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ولما علم أنه قتل أتى سليمان وأبيه وأخوه وقتلهم وأعلن وفاة المؤيد، ودعا علي بن حمود البيعة لنفسه فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله، وكانت مدة خلافة سليمان المستعين منذ دخول قرطبة إلى أن قُتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر وكانت أمه أم ولد تدعى ظبية ومولده في سنة ٣٥٤هـ.

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس وسقطت نهائياً وماتت وقرأت عليها الفاتحة، بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية الخلافة مائتين وثمانين وستين عاماً (٢٦٨) وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً بعد أن لبست منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ستاراً للمتغلبين من عامر، وكانت بيعة علي بن حمود بالخلافة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الأندلس يحكمها علويون من سلالة آل البيت، وهم أولاد إدريس بن الحسن الذي أسس دولة الأدارسة في المغرب.

ولكن من غير السهل على العلويين حكم الأندلس كلها وأخذ البيعة من ثغور جميع أنحاء الأندلس بينما لا زالت آثار الفتنة وميل بعض الزعماء إلى الاستقلال بإماراتهم، ولما قبض علي بن حمود زمام الحكم في الأندلس بايده غالبية الأمراء من البربر والعاملريون بقيادة خيران صاحب المرية وكذلك عدد من أمراء العرب، وهذا اشتد على في محاسبة الخارجين على القانون وإخراج تردهم وشغفهم وحماية السلطة

المركبة من عدوائهم.

ويذكر المؤرخون بأن علي كان موفق في سياساته الحديدة حيث عم العدل والأمان قربطة وأمنت طرقها وضياعاتها وأهل الأندلس جميعاً فأحبه الناس خاصة أهل قربطة، وكان من معاونيه جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي حزم بن جهور وأحمد بن برد وغيرهما، وقد أخطأ علي في اتخاذ هؤلاء الأمويين معاونين له لأنهم يحملون في دمهم العداء للخط العلوي وسنبلي كيف أنهم تآمروا عليه واغتالوه.

ولكن الأمور لم تستقر بسهولة للعلويين حيث استلموا تركة ثقيلة من الانحراف والفساد والظلم والفتنة التي تركتها الدولة الأموية وخاصة التعصب القبلي وضرب المولى من البربر وغيرهم، ولم تمض فترة طويلة حتى أعلن خيران صاحب المرية خلافه مع علي بن حمود بعدما كان هو أول من سانده وبابعه في الخلافة، وتحالف مع والي سرقسطة المنذر بن يحيى التجبيي وسار الاثنان بجيشهما إلى غرناطة لمحاربة جيش صنهاجة البربرى ولكن البربر استطاعوا أن يسحقوا جيش خيران والمنذر ويهزموهما شر هزيمة وفرّ الباقيون، وبعد هذه الحادثة علت قوة وسمعة العلوين وهابهم الناس وأطاعوهم.

وقرر علي التشديد علىبني أمية خاصةً المتواجددين في قربطة لأنهم هم وراء الفتنة والتحريض على شق الطاعة فاعتقل رؤسائهم وصادر أمرأهم وأطلق يد البربر في متابعة وملاحقة الخارجين عن طاعة السلطة المركزية في قربطة ونزع سلاحهم وفي مقدمتهم وزير أبو حزم بن جهور الأموي.

ولكن القدر كان يتربص بعلي بن حمود والدولة العلوية الفتية ذلك أنه بينما كان يتأنب في تحضيره جيشاً عظيماً من البربر لإخراج الفتنة في جيان وغيرها من المناطق الشرقية والتي لازالت جيوب منبني أمية تتبعش فيها وتدعوا إلى خلافةبني أمية وهي دعوة كمن يتضرر من الميت أن يعود إلى الحياة، وكانت دولةبني أمية تحمل عوامل الانهيار والسقوط في جسدها وروحها من الداخل منذ نشأتها لأنها كانت عنصرية تقدم العرب على البربر وغيرهم من الأفارقـة لهذا فقد خلقت لها عدواً يشكل الغالبية العظمى من المجتمع الأندلسي.

فقد تأمر الأمويون على علي بن حمود سراً وهذا الأسلوب عادة ما يستخدمه الأمويون عندما يفشلون في مواجهة الدولة وكسب رضا الناس عندئذ يتوجهون إلى اغتيال قياداتها وزعيمائها وقد فعلها قبلهم جدهم عبد الرحمن الداخل (الأعور) عندما فشل في إخماد ثورة عبد الواحد الفاطمي حيث اغتاله سراً.

لقد تسلل ثلاثة من فتيان القصر الصقالبة من مواليبني أمية إلى علي بن حمود وهو في الحمام وقتلوه غفلةً وغدرًا، وكان ذلك في الثاني من ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ / ٢٣ مارس سنة ١٤١٨ م وعمره خمسة وخمسون سنة وكانت خلافته عام وتسعه أشهر.

ثم تولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود وكان حينئذياً على أشبىلية وكان يكبره ببعض سنوات وتلقب بالمؤمن وقبض على الفتى الثلاثة وقتلهم، واستقر في قرطبة عاصمة الخلافة، وكان يحيى بن علي ولد المقتول واليأ على سبتة وولده الثاني إدريس واليأ على ملقا وقد حضي القاسم بتأييدها ومباعدة البربر وهذا فإنه عدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان والبراءة من يتسرور وبراءة الذمة من تسور على أحد.

وحاول الخليفة الجديد القاسم بن حمود استهلاك الفتى العامريين والصلح معهم ولكن زعيمهم خيران بقي معتصماً في مدنته المرية Almaria، وأخذ القاسم ينشر دعوته السلمية ويمد سلطانه إلى جميع مناطق الأندلس فاتخذ بطانة من السود واسند إليهم مناصب القيادة ولكنه لم يتمكن من تخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه.

ولكن مع الأسف حدثت فتن بين أبناء العائلة العلوية الحاكمة من بني حمود وهو نفس المرض الذي أصاب الحزب الأموي في آخر أيامه، حيث بدأت بينهم صراعات على السلطة، وكان يحيى وإدريس أولاد علي بن حمود قد اتفقا على إسقاط عمها القاسم والسيطرة على قرطبة، فجمعوا جيشاً كبيراً وزحف يحيى بقواته إلى قرطبة، ففر عمها القاسم إلى أشبىلية وفضل عدم المواجهة مع ابن أخيه منها كان الأمر، وبالتالي فقد دخل يحيى قرطبة في أول جمادى الأول سنة ٤١٢ هـ، وبويغ بالخلافة من قبل البربر وتلقب بالمعتلي بالله.

واستقبل البربر والأندلسيون خلافته بالاستبشار والرضا، وكان المعتلي فارساً بارعاً و يؤثر العدل ويجزل العطاء لمن وفده عليه أو مدحه بشعره فأحبه الناس، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم فاستبدوا به وضيقوا عليه، وبالتالي قرر البربر خلعه في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣هـ ولم يمضي عليه سوى عام ونصف فغادر قرطبة إلى ملقا، وفي نفس الحال تحرك القاسم بن حمود عمه من أشبيلية لدعوة البربر فدخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣هـ وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين.

ولكن القاسم لم يوفق هذه المرة في بسط سلطانه وتهيئة الأمور في قرطبة بين البربر والأندلسيين من أهل قرطبة، وكان أهل قرطبة خليط عجيب من السكان ففيها العرب والبربر والصقالبة والأفارقة والمولدين والمسيحيين واليهود و لهم زعامات وقبائل وعشائر، وكانت الفتنة والصراعات مشتعلة بينهم وكان من الصعب تهيئة الأمور وفرض السلطة في قرطبة، وقد حدثت معارك داخلية شديدة أيام القاسم بن حمود مما أدى بالأخير إلى مغادرته قرطبة، وتوجه مرة ثانية إلى أشبيلية حيث يوجد ولديه محمد والحسن هناك.

بعد ذلك توجه القاسم وأولاده إلى حصن ومدينة شريش بعد ما ترك أشبيلية إلى القاضي محمد بن إسحائيل بن عباد، أما يحيى وإدريس أولاد علي بن حمود فقد بسطوا سيطرتهم على المناطق الجنوبيّة من الأندلس وقسم من بلاد المغرب، ورغم أن العلوين سيطروا على هذه المناطق الشاسعة إلا أنهم لم يفلحوا في توحيد كلمتهم ورص صفوهم وتغلب مصلحة الدين والمذهب على المصالح الشخصية والذاتية، وهو مع الأسف مرض مستفحلاً نلمسه لحد هذا اليوم في كثير من بلداننا الإسلامية.

ومضت بضعة أشهر والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها وبني حمود العلوين لا زالوا في حصونهم ومدنهم يتظرون تهيئة الأمور والعودة مرة ثانية إلى قرطبة، وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير بجيش كبير إلى قرطبة فدخلها في الخامس عشر من رمضان سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م، وبقي فيها إلى نهاية العام ثم تركها سنة ٤١٧هـ، فاقداً ملقاً وترك وزيريه أحمد بن موسى ودوناس ابن أبي روح يديران شؤونها، ويبدوا أن بني حمود رأوا أن قرطبة غير صالحة لأن تكون عاصمة للخلافة ومن

المستحيل أن يستقر فيها الوضع وأن يؤمن عليهم فهم أصحاب فتنه وفوضى، وقد استخدموهم أنواع من السياسات و مختلف الوجوه فلم يفلحوا في تهدئة الأمور وبسط السلطة، وكان الأمويون قد لعبوا دوراً فعالاً في تأجيج الفتنة والاضطراب والفوضى في قرطبة حيث بقىت عدة سنوات دون خلافة ولا سلطة تحضا برضاء الجميع، وحدث أن بايع أهل قرطبة عدد من الزعماء الذين ينتمون إلى بنى أمية ولكن سرعان ما يخلعونهم فيهربون أو يُقتلون.

وأخيراً جاء أحد زعماء أهل قرطبة وهو أبو الحزم بن جهور وكان أحد معاوني علي بن حمود ونادى في جميع أحياء قرطبة وارياضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ولا يأويهم أحد ونفيهم وجلائهم من المدينة، وبذلك قرر أهل قرطبة صغيرهم وكبيرهم التخلص من بنى أمية وإبطال رسم خلافتهم وبذلك تنتهي الدعوة الأموية بصورة نهائية وينقطع ذكرها إلى الأبد في منابر الأندلس والمغرب الأقصى، وهذا ما ذكره الدكتور عبد الله عنان في كتابه الكبير (دولة الإسلام في الأندلس).

ورغم أن ابن جهور كان من بنى أمية ولكنه استيقض ضميره وعقله ورأي أن الشر والفتنة والفساد والخروب كلها تأتي من الحزب الأموي وأتباعه وأن قرطبة لا يستقر لها سلام وأمان إلا بإجلاء هؤلاء من المدينة وضواحيها كلها.

وهذا يذكرنا بأيام الرسول ﷺ الأولى عندما حل في المدينة المنورة وكان اليهود يحكون المؤامرة تلو الأخرى وأنهم أصحاب فتن وقلائل فقرر إجلائهم من المدينة بل من الحجاز كله، لأن ذلك الإجراء هو الحل الوحيد لاستقرار الأمن والسلام. ولنعد إلى تبع مصائر دولة بنى حمود في جنوب الأندلس والنزاعات التي نشببت بين يحيى المعتلي وعمه القاسم والتي انتهت بمقتل القاسم واستيلاء علي على جميع أملاك القاسم من ثغور ومدن ومحصون وانفرد برياسة البربر في الأندلس.

وكان يحيى يخشى على مملكته من مطامع القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد الذي استقل في أشبيلية بعدما كانت تابعة للدولة الحموية، وكان عليها عم القاسم وأولاده، وأخيراً اشتباك الاثنين في معركة كبيرة قرب قرمونة وانهزم جيش يحيى بن حمود وقتل فيها وكان ذلك في محرم سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ م.

ولما قُتل يحيى بن حمود سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبي وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنة البربرى إلى مبادلة أخيه إدريس بالخلافة وكان يوم ذاك واليًا على سبتة، وهكذا تم مبادلة إدريس بالخلافة في ملقة، وقد اتخذت هذه المدينة عاصمة وقاعدة للدولة الحموية بدلاً من قرطبة التي كانت تضطرم فيها الفوضى والقتال.

واعترفت بخلافته ثغور رندة والجزيرة الخضراء وغيرها وكان من حلفاءه والمعترفين ببيعته الفتى زهير العامري صاحب المريّة، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة وقد سارا في قواتهما لمساعدة إدريس على محاربة ابن عباد وانضم إليهما البرزالي صاحب قرمونة، كما عين إدريس ابن أخيه حسناً حاكماً لسبتة وأعماها، وبذلك تم أعادة المناطق الجنوبية والغربية من الأندلس إلى حكم بني حمود ونفوذهم، ومن ضمنها أشبيلية وحصونها بعد مقتل أميرها إسماعيل بن عباد.

وفي سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٣٩ م توفي الخليفة الحموي إدريس أثر مرض ألم به فبُويع ابنه يحيى بالخلافة في ملقة وتلقب بالقاسم بأمر الله، ولكن أرغم بعد ذلك عن التخلي عن الخلافة إلى حسن بن يحيى المعتلي (ابن أخي إدريس) في سنة ٤٣١ هـ، وكان حسن أميراً حازماً قوي النفس فنظم الإدارة واستكثر من الجندي وجباً الأموال ولقب بالمستنصر، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبي جعفر بن بقنة وعهد إلى نجا بحكم الثغور الغربية.

وهكذا عادت الأمور إلى الهدوء والسكينة وعم الأمان في المناطق البربرية والأندلسية وجميع الثغور الغربية، ثم قُتل الوزير بتدبير من الخليفة حسن بن يحيى المعتلي ثم قُتل يحيى القاسم بأمر الله، بعد ذلك هلك الخليفة حسن بالسم من تدبير زوجته التي كانت اختاً لـ يحيى القاسم وكان ذلك في جمادي الأول سنة ٤٣٤ هـ / ديسمبر ١٠٤٢ م. وكانت هذه النزاعات العائلية قد أنهكت دولة بني حمود وشتت أملاكهم وفقدت الثقة بهم مما ساعد على استقلال بعض الولايات.

ثم بُويع بالخلافة إدريس بن يحيى الحموي الملقب بالعالى وذلك في جمادي الثاني ٤٣٤ هـ وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها، وكان العالى أميراً رقيق الحال جواداً كثیر الصلاة أدیباً ينظم الشعر، مع ذلك كان ضعيف الرأي متهاوناً في شؤون الحكم فسرى التفكك إلى السلطة.

وفي سنة ٤٣٨ هـ ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود وتلقب بالمهدي وتوطد أمره في ملقا ولكن بعض النواحي لم تستجب له ولم تبايعه واستمر في الحكم ست سنوات ثم دُس إليه السم من قبل خصومه أواخر سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م.

فبويغ من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود وتلقب بالسامي، وأقام حيناً في ملقا ثم أصابته فيها يظهر لوثة فغادر ملقا وهام على وجهه في صفة تاجر ثم قتل في سبتة من قبل حاكمها سواجات البرغواطي.

وكان إدريس بن يحيى العالي قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة فأقام بها في كنف سواجات وأقام كذلك في رندة في كنف حاكمها أبي نور بن أبي قرة، فلما هلك السامي سار إدريس العالي إلى ملقا واستقبله أهلها بحماس ودعى له بالخلافة مرة ثانية واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه محمد الملقب المستعلي وأقرت بيعته المرية ورندة ولكن معظم الزعماء البربر نكلوا عن طاعته وفي مقدمةهم باديس الصنهاجي صاحب غرناطة.

وفي سنة ٤٤٩ هـ سار باديس الصنهاجي في قواته إلى ملقا واستولى عليها وضمها إلى إمارته، وغادرها المستعلي وسار إلى المرية ثم عبر منها إلى البحر مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم واستمر بها حتى توفي سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م، وبعد استيلاء باديس حاكم غرناطة على ملقا عاصمة بني حمود انهارت دولة بني حمود وانتهى سلطانها بالأندلس بعد أن حكموا معظم بلاد الأندلس وثغور المغرب الشمالية. وكانت دولة بني حمود دولة علوية شيعية حكمها أبناء الادارسة وهي أول دولة علوية شيعية تحكم في الأندلس وكانت أقوى دولة وأوسع نفوذاً بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وانهيارها تماماً بعد موت محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٠٢ م.

وقد حكمت دولة بني حمود حوالي نصف قرن من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤٥٦ هـ حيث شملت ثغور قرطبة - شري - أشبيلية - جيان - المرية - قرمونة - غرناطة - مرورو - اركش - ملقا - الجزيرة الخضراء - سبتة - مليلة وطنجة وغيرها.

وكانت دولة بني حمود قد اعتمدت على قبائل البربر في سلطانها وحكمها وكانت

من أبرز هذه القبائل الشيعية هي قبيلة صنهاجة وزعيمها زاوي بن زيري، حيث كانت القوة الضاربة لكل الخارجين والمتمردين على خلافةبني حمود العلوية.

وكانت هناك محاولةأخيرة من قبل زعماء البربر لبيعةبني محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، لكن يبدوا أنها جاءت متأخرة وأن قوةبني حمود قد انتهت وضعفت والقدر قد حكم عليها بالانهيار، وبعد سقوط الدولة الحموية بدأت الأندلس مرحلة أخرى من حياتها تسمى مرحلة حكم الطوائف، حيث بدأت تنفكك الولايات وتنفصل واستقل فيها الولاة وأخذ كل واحد يحكم إمارة مستقلة، كما انتشرت الحروب والتزاعات بينهم وكان من ضمن هذه الإمارات المستقلة، إمارات بربرية شيعية منها إمارةبني مناد في غرناطة وإمارةبني يفرن في رندة، وإمارةبني خزرون في اركش وإمارةبني دمر في مورون وغيرها، وسنأتي على الحديث عن هذه الإمارات البربرية لاحقاً.

الفكر والأدب الشيعي في ظل الدولة الحموية

كان علي بن حمود أول خلفاء دولةبني حمود كثيراً ما يتكلم البربرية رغم أصله العربي، وقد ذكر المؤرخ ابن حيان القرطبي سيرة علي بن حمود فقال: (وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر يقيم الحدود مباشرةً بنفسه، لا يحاشي أحداً من أكابر قومه، فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل ورخا السعر)

وهكذا كانت بداية الدولة الحموية العلوية، بداية عدل وانصاف للمظلومين، فاحبوه أهل قرطبة وسائر أنحاء الأندلس واطاعوا خلفائهم.

ويذكر بان الحمويين كانوا شيعة معتدلين، فلم تكن قوة تشيعهم الفكرية والفلسفية والفقهية كما هو في مصر ايام الدولة الفاطمية او العراق وايران ايام الدولة البوئية.

وكان من المتظر ان يتشر ويقوى التشيع في كل أنحاء الأندلس، وذلك لأن الحسينين من ابناء ادریس استطاعوا من تكوين لهم دولة قوية مستقلة لها كيانها

السياسي والعسكري والفكري، ثانيا ان المجتمع الأندلسي اصبح ممزق ومنحل بعد سقوط الدولة اموية، لهذا كانت الارضية خصبة ومهيئة، ثالثا وجود الدولة الفاطمية التي عرضت عليهم العون والمساعدة واقامة الروابط السياسية والعسكرية، وكذلك نشر الدعوة الفاطمية في الأندلس. ولكن يبدو ان الخلفاء الحمويين قد اعرضوا عن عروض الفاطميين وفضلوا الحكم بمفردهم.

ويذكر الدكتور محمود علي مكي في مقالة له نشرها في مجلة المعهد المصري سنة ١٩٦٥، بان تشيع الحمويين كان معتملا باهتا لا روح فيه ولا قوة، وانما كان تقليدا للشرق، كما ذكر بان الحمويين لم يغيروا من النظم الادارية والقضائية التي كانت موجودة في ايام بنى امية في الأندلس. كما انه قد تخل حكم الدولة الحموية كثير من الفتنة والخروب خاصة بين ابناء العائلة الحاكمة من بنى حمود، وهذا لم يدع ذلك مجالا للاستقرار والامن حتى يتسمى لهم نشر افكارهم ومعتقداتهم، كما فعلت الدولة الفاطمية في شمال افريقيا ومصر، او كما فعله محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، حيث كانت حركته في البداية حركة اصلاحية كبرى يدعوا فيها الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتقاد بالامامة والا مام المتظر ومحبة أهل البيت ﷺ.

وكان الحمويون في بداية امرهم قد اختاروا خطأ آخر للوصول الى الحكم، وهو التسلل الى صفوف الدولة، حيث بدأوا في تسلق المناصب الحساسة والعليا في قيادة الجيش خاصة في زمن المنصور بن ابي عامر واولاده الذين جاءوا من بعده. وكانوا يحملون في عروقهم احياء دولة الادارسة التي اسقطها العباسيون منذ زمن بعيد. وفعلا تحقق لهم حلمهم ووصلوا الى ذلك في زمن سليمان المستعين، حيث مسکوا كل مناصب الدولة الحساسة، ثم جاءت الفرصة المناسبة حتى اسقطوا بنى امية واعلنوا خلافتهم.

ورغم كل ذلك فان الدولة الحموية قد خلقت جوا شيعيا في كل انحاء الأندلس انتشرت فيه الافكار والفقه الشيعي كما ظهر فيه عدد من العلماء والادباء والمفكرين ومنهم الشاعر الكبير عباد بن ماء السماء الذي كان علما من اعلام الادب الشيعي في الأندلس ايام بنى حمود. كما انتقلت كتب الشيعة من المشرق الى الأندلس، فاثرت على التفكير الديني والسياسي والادبي والفلسفى، خاصة في الايام الاخيرة من عمر

الدولة الاموية، والتي كانت بدايتها عندما تولى الخلافة ابن المنصور عبد الرحمن المسمى شنجول سنة ٤٠١ هجرية / ١٠١٠ م

وايضا انتشرت في نفس الوقت الالقاب والانساب الشيعية واصبح الانتفاء الى المذهب الشيعي ضاهرة حضارية يفتخر بها اهل الأندلس. وقد ذكرنا سابقا بان المنصور وابناءه عبد الملك وعبد الرحمن - شنجول -

قد استعانا بفرق من قبيلة صنهاجة الشيعية. وكان الصنهاجيون بلغ نفوذهم ان لا يطبق عليهم الفقة السنّي، كما ان عبد الرحمن بن المنصور فرض على اهل دولته ان يتزينوا بزي الصنهاجيين.

وقد رافق قيام الدولة الحموية ازدهار الادب العربي وحرية التفكير، فقد اصبح الخلفاء الحمويون يهتمون بتشجيع الشعراء لما عرفا من اهمية كبيرة للشعر في التوجيه السياسي، فاخذوا يجمعون حولهم اكبر عدد من الشعراء والادباء. وعلى الرغم من ان علي بن حمود اول خليفة علوى كان يفهم العربية بصعوبة الا انه كان يصغي الى الشعراء ويثيب عليهم، وكان من جاءوا من بعده من الخلفاء اكثرا تشجعوا للادب واغداقا للشعر.

وكان اخلص الشعراء الذين اتصلوا بالحموبيين هو الشاعر الاندلسي عباد بن ماء النساء، وكان شيئا يتفاخر بذلك، واصبح فيما بعد الناطق الرسمي للدولة الحموية، كما ذكر المؤرخون بأنه هو المبدع والمطور لشعر الموشحات في الأندلس، سبق بذلك ابن باجة السرقسطي بمائة عام تقريبا والذي يعتبره البعض من ابرز شعراء الموشحات في الأندلس.

وقد صدر كتاب باللغة الاسانية عن حياة وشعر عدد من الشعراء الاندلسيين للكاتب هنري بيريز، (Henry W. Hoernerbach) سنة ١٩٨٠ وجاء في الكتاب فصلا عن حياة وشعر عباد بن ماء النساء، غير انني لم اعثر على هذا الكتاب في المكتبات العامة والسوق، وقد نقلت الخبر عن احد المصادر العربية الحديثة.

ولكن مع الاسف لم نجد في كتب التاريخ والادب عرضا جيدا لهذا الشاعر، رغم انه من مفاخر الشعر الاندلسي في القرن الخامس الهجري وهو عصر انتعاش الفكر

والادب الأندلسي . وقد توفي عباد بن ماء السماء سنة ٤٢١ هجرية / ١٠٣٠ م.

وله قصيدة يقول فيها :

من القول اربا غير ما ينفك الصل
تشيعه محسن وبيعته بتل
فخيم في قلب ابن هند له غل

فها انذا يابن النبوة نافث
وعندي صريح من ولائك معرق
ووالى ابى قيس اباك على العلي

كما له قصيدة اخرى في مدح علي بن حمود :

ورثتم واذا بالغرب ايضا سمي
له الامر اذ ولاه فيكم وليه

ابوكم علي كان في المشرق بدء ما
فصلوا عليه اجمعون وسلموا

وايضا من شعراء الشيعة الذين رافقوا علي ابن حمود هو الشاعر ابن الحناظ
القرطبي ومن شعره :

وطفاء تكسر للجنوح جناحا
من برقها كي تهتدي مصباحا

راحت تذكر بالنسيم الراحا
اخفى مسالكها الظلام فاوقدت

كما قدم عدد كبير من الشعراء على بلاطبني حمود في قرطبة ومنهم شعراء العهد
القديم مثل الشاعر المتألق ابن دراج القسطلي وكان شاعر المنصور بن ابى عامر
المفضل ، وقد مال الى الشيعة ومدحهم . ويقول في علي بن حمود :

شجيت لشجو الغريب الذليل
وكوني رسولي لابن الرسول

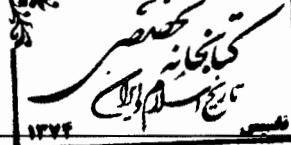
لعلك يا شمس عند الاصليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع

وكان علي يثب ويهب العطايا للشعراء ويظهر ذلك في آثار النسب العربي والكرم
الهاشمي . كما يذكر بعض المؤرخون بان ابن دراج القسطلي كان افضل الشعراء الذين
اتصلوا بالحموديين ومدحهم واحتاج بصدق امامتهم وانه مال الى التشيع او تشيع .
فيقول :

وانتم أئمة فعل وقيل
بحكم الكتاب وحكم العقول

فانت هدات حياة موت
وانتم خلائق دنيا ودين

واختص ايضا بالحموديين ابو عبد الله محمد بن سليمان القرطبي المعروف بابن



الخناظ الكفيف والذي ذكرناه سابقاً. ولكن مع الاسف لم نستطع الحصول على معلومات كافية عن حياته وشعره خلال تصفحنا للمصادر العربية التي لدينا. وكان قد نشأ في قرطبة ودرس العلوم خاصة علم المنطق وكان شاعراً لاماً اظهر تشيعه ومدح الحمويين.

كما مدح الحمويين من الشعراء ابو عبد الله السراج وادريس بن يمان اليابس وغانم بن الوليد وغيرهم.

وذكر المقربي في كتابه - نفح الطيب - (وقد كان بنو حمود من ولد ادريس الذين توثروا على الخلافة في اثناء المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون انفسهم بما يأخذه خلفاء بني العباس. وكانوا اذا حضرهم منشد مدح او من يحتاج الى كلام بين ايديهم يتكلم من وراء حجاب، وال حاجب واقف عند الستريجاوب بما يقول له الخليفة).)

ولما حضر ابن مقانة الاشبوني امام حاجب ادريس بن يحيى الحموي الذي خطب له بالخلافة في ملقاً وانشده قصيدته المشهورة النونية.

فأنشت عنها عيون الناظرين	وكأن الشمس لما اشرقت
بن حمود امير المؤمنين	وجه ادريس بن يحيى بن علي
	وبلغ فيه الى قوله :

انظرونا نقبس من نوركم

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر واحسن اليه. وكان ابن مقانة من اهم شعراء الحمويين الشيعة، ويعتقد انه ولد في لشبونة عاصمة البرتغال الحالية.

يدرك بعض المؤرخين بان التشيع في المشرق كان من اهم العوامل التي غذت الادب العربي وامتدت بالوان جديدة. وكما كان الحزب الشيعي اول حزب اسلامي ديني سياسي، فكذلك كان الادب الشيعي اول ادب سياسي، حاول شعرائهم ان يحتجوا فيه على خصومهم من الامويين والعباسيين مدافعين بشدة عن نظرية الامامة. ويقول الدكتور محمود علي مكي : كان الادب الشيعي يتميز بصدق العاطفة وقوه

الشعور الديني، وهذا كانت مدائح شعرائهم تختلف عن مدائح غيرهم لما فيها من الحرارة والأخلاص، وهو ما يفتقر إليه شعراً المدح عموماً في الشعر العربي.

ومثال على ذلك دعبدل الخزاعي الذي يعتبر من كبار شعراء العرب واحد المجددين ومن حلة الأدب والتاريخ والعارفين ب أيام العرب والرواية والشعر. وكان يقول : لي خمسون سنة احمل خشبي على ظهري ابحث عن من يصلبني عليها فلم اجد من يفعل ذلك. واشتهر بقصيدته التائية التي قالها في مكانة أهل البيت عليهم السلام وانشدها في حضرة الإمام الرضا عليه السلام. وعندما مات دفنت معه هذه القصيدة بطلب منه.

شغل عن اللذات و القينات ازكي وانفع لي من القينات ومهبط وحي مقفر العرصات	في حب آل المصفي ووصيه ان النشيد بحب آل محمد مدارس آيات خلت من تلاوة
---	---

وقد عاصر دعبدل عدد من الخلفاء العباسيين، ثم قتلواه وكان عمره حوالي مائة سنة. أما الفرزدق فهو أحد أعمدة الشعر العربي، وشعره قاموس اللغة العربية حيث يرجع إليه لحد هذا اليوم أصحاب اللغة والتحول لهم معاني لهجات اللغة العربية قبل الإسلام وبعده. اشتهر بقصيدته التي قالها في الإمام زين العابدين - ع - والتي لازالت حية ينشدها الشعراء والخطباء على المنابر.

والبيت يعرفه والخل والحرم هذا التقى الطاهر العلم إلى مكارم هذا ينتهي الكرم ولولا الشهد كانت لائيه نعم	هذا الذي تعرف البطحاء وطئته هذا ابن خير عباد الله كلهم إذا راته قريش قال قائلها ما قال لا الا في تشهده
--	---

وكانت بغداد في فترة حكم الشيعة في الأندلس من أهم المراكز الشيعية بعدما استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هجرية / ٩٤٠ م. وكانت الملك الأندلسية ماهي إلا صورة للمدنية الشرقية العظيمة. وكان عصر بنو بويه من ازهر عصور الأدب الشيعي، وفي ضلتهم نشأ كثير من المفكرين والعلماء واهل الشعر والأدب، وقد ذكرنا بعضهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

دولة بنى مناد الصنهاجية

بني مناد يرجعون في الاصل الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة وهي بطن من بطون البرانس الكبرى، وكان متزدهم باواسط المغرب. فلما غلب الفاطميون على شمال افريقيا وقامت دولتهم بها، انحاز بنى مناد اليهم وحاربوا الى جانبهم ضد الخارجين عليهم، وكان زعيمهم زيري بن مناد من اعظم زعماء البربر، وقد حارب قبائل البربر لخالفتهم الفاطميون. وكان زيري قد قتل في احد المعارك فخلفه ابنه بلکين. ولما سار المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢ هجرية الى مصر بعدما افتحتها القائد جوهر، اختار بلکين لولاية افريقيا ثم خلفه ولده المنصور ثم خلف المنصور ولده باديس.

وفي خلال ذلك كانت المعارك تضطرم في ربوع المغرب باستمرار بين امراء صنهاجة الشيعية الموالين للدولة الفاطمية وبين خصومهم من امراء زناتة وغيرها من القبائل الموالية لبني امية. وكانت صنهاجة تحمل دائمًا وعلى يد بنى مناد علم الدعوة الفاطمية، بينما تحمل زناتة وحلفاؤها علم الخلافة الاموية في الأندلس.

وحدث ايام ولاية باديس بن المنصور على افريقيا فتن بينه وبين ابناء قومه آل مناد ما اضطر بعضهم الى مغادرة افريقيا والتوجه الى الأندلس.

وقد كتب شيخهم زاوي بن زيري الى المنصور بن ابي عامر يستأذنه الجواز بقومه الى الأندلس. فعبر زاوي وابناء اخيه - ماكس وحباسة وحبوس - في اهلهم واماهم الى الأندلس سنة ٣٩١ هجرية، فاكرمهم المنصور وانزلهم منزلًا حسنة، واتخذهم له بطانة وعونا. ثم قوت شوكتهم في اواخر ايام المنصور واولاده عبد الملك وبعد الرحمن، ورجحت كفتهم في الجيش وكانوا له عضدا. ويدرك بعض المحللين بان المنصور بن ابي عامر كان قد مال الى الشيعة البربر واعتمد عليهم في الحكم وفرض زيهم على رجال دولته ولم يفرض عليهم المذهب السنى، وهذا ليس بعيدا انه تشيع واخفى ذلك.

وبعد سقوط الدولة العاميرية وبداية عهد الفتنة اخذ البربر بقسط بارز في المعركة المضطربة التي تدور حول عرش الخلافة. والتف البربر حول سليمان بن الحكم الاموي ضد خصمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي الذي لقى منه البربر الاضطهاد وسوء المعاملة فحاصروا قرطبة وفتوكوا باهلها. وانتهى الامر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة وتلقب بالمستعين وذلك في سنة ٤٠٣ هجرية / 10١٣ م.

وسيطر البربر على مقايد الدولة وقوت شوكتهم، فارد سليمان اضعافهم وتفريقهم في الكور والثغور وابعدهم عن قرطبة. وبالتالي اصبحت ستة قبائل بربرية تسيطر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى وشمال المغرب. وقد كرنا ذلك سابقا.

وكان قبيلة صنهاجة وزعيمهابني زيري قد اخذوا ولاية البيرة (غرناطة). ولما نزلوا فيها رأوا انها لا تصلح بموقعها هذا للدفاع وبالتالي اتفق رأيهم على ان يبنوا في البسيط الواقع على مقربة من وادي شنشل المنحدر من جبل شنير والذي يسمى اليوم جبل الثلج *sierra nivada* مدينة جديدة حصينة ينزلوا بها وهكذا قامت مدينة غرناطة. وكان ظهورها نذيرا بخراب البيرة فعفت منها بسرعة، لهذا فانه يعود الفضل في تأسيس مدينة غرناطة الى بنى مناد الشيعية.

واستقر بنو مناد في غرناطة في الوقت الذي استولى بنى حمود على قرطبة وبويع علي بن حمود بالخلافة وقتل سليمان المستعين. وبعد فترة خالف خيران صاحب المرية الخليفة علي بن حمود وایده في ذلك والي سرقسطة منذر بن يحيى وسارا بجيشهما الى غرناطة لمقاتلة جيش صنهاجة القوي، فخرج اليهما زاوي بن زيري بقواته فهزمهم وفر الباقيون. بعد هذه الحادثة قرر زاوي بن زيري العودة الى افريقيا بعد ما راي ان الفتنة في الأندلس ليس لها حل قريب وانها سوف تبقى مشتعلة في حروبها الى امد بعيد ، فخرج منها سنة ٤١٠ هجرية / 10٢٠ م. وهناك استقبله اخيه المعز بن باديس صاحب افريقيا وبنو عمه اجمل استقبال ، ونزل في القيروان اجمل منزل.

وبعد رحيل زاوي بن زيري خلفه على غرناطة حبوس بن ماكسن ابن اخ زيري اميرها بعدما كان واليا على حصن اشترا. وبدأت ولاية حبوس لغرناطة سنة

٤١ هجرية فسار سيرة حسنة وضبط النظام والامن وقسم الاعمال بين اقاربه وبني عمه، وكان يشركم في الرأي ويجري في حكمه طريقة الشورى.

وامتد نفوذه على قبرة ونواحيها ومدينة جيان، وعقد علاقات طيبة مع جيرانه من رؤساء البربر وفي مقدمتهم بيعته لبني حمود، حيث كان يعتبر اليد القوية الضاربة على الخارجين عليهم خاصة في زمن ادريس ضد القاضي بن عباد صاحب اشبيلية.

ويشيد المؤرخ ابن حيان بجلال حبوس، وقد عاصره فيقول: (وانه كان على قسوته يصغى للادب ويتمي في العرب، وكان وقورا فظا مهيبا نزرا الكلام قليل الضحك كثير الفكر شديد الغضب، شجاع حسن الفروسية جبار متكبرا داهية واسع الحيلة كامل الرجلة له في كل ذلك اخبار مؤثرة). ثم خلفه في الحكم ابنه باديس الذي قدر له ان يكون اقوى ملوك البربر في جنوب الأندلس، واعظمهم شأنا في تلك الفترة. غير ان زهير العامري صاحب المرية قد طمع في ولاية غرناطة فتوجه اليها بجيش كبير، وكان باديس قد حشد قواته ورتبتها ترتيبا محكما، وهدم جيشه قنطرة في مؤخرة القوات المهاجمة.

ثم بدأت بين الجيشين معركة حامية انتهت بانتصار باديس وهزيمة الصقالبة وقتل زهير ومعظم قواه، ثم تعقب الفارين وقتلهم واسر بعضهم، وهكذا انسحق جيش زهير باكمله. وكانت هذه المعركة قد علت كعب باديس البربري وهابه اهل الأندلس.

ولما ضعف الحمويون شعر باديس انه احق برأسة البربر في الأندلس، لهذا سار في قواته الى ملقا واستولى عليها وضمها الى امارته سنة ٤٤٩ / ١٠٥٧ م، وغادرها الوالي محمد المستعلي الحموي وعبر البحر الى المغرب، وانتهت بذلك مملكة بنو حمود في ملقا. واما الجزيرة الخضراء فقد حاصرها ابن عباد صاحب اشبيلية، فاضطر صاحبها القاسم بن حمود ان يغادرها بالامان مع اهله وصحبه، وذلك سنة ٤٤٦ هجرية / ١٠٥٥ م

وكان باديس قد حكم ثلاثة عاما، وكانت مملكته تمتد يومنا هذا من بسطة شرقا الى رندة غربا ومن جيان شمالا الى البحر جنوبا. وقد شاخ باديس واخلد الى الراحة.

وكان له وزير يهودي يدعى اسماعيل بن نغرالة، يصفه ابن حيان بأنه كان بارعاً في الآداب العربية والعبرية والعلوم الأخرى. ولما توفي هذا الوزير اليهودي ندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه، وكان يوسف غض الايهاب وافر الذكاء والبراعة فقام بالاعمال خير قيام حتى غداً كأبيه أول رجل في الدولة بعد اميرها.

وكان بلقين ابن باديس ينظر إلى يوسف بعين السخط والحسد، وفي ذات يوم دعاه يوسف لمجلس شراب ودس السم في كأسه، وبعد يومين توفي بلقين. واستطاع يوسف أن يقنع الامير باديس باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرباته فقتل منهم باديس عدداً كبيراً وفر الباقون. وكان مصرع بلقين سنة ٤٥٦ هجرية / ١٠٦٤ م ولكن يوسف استمر في سيطرته على الدولة وبسط على غرناطة واعمالها نوع من الطغيان اليهودي المرهق وقرب اليهود من اصحابه واستوظفهم في مراكز الدولة.

وكل ذلك وباديس غافلاً وغارقاً في هو ومنكباً على لذاته. وكان أهل غرناطة يضطربون سخطاً على الطاغية يوسف ويترقبون الفرصة لاسقاطه واقربائه الذين سيطروا على امور الدولة. وكان الفقيه الورع الزاهد أبو اسحاق الاليري (ابن ييري) يقود هذه الحملة ضد اليهود والتخلص من طغيائهم، وقد نظم قصيدة في ذلك ذاعت بين الناس، وكانت بمثابة الشارة الأولى التي اضرمت النار. وكان اسحاق الاليري فقيهاً ومحدثاً واديباً وشاعراً، وهو أيضاً من ابرز فقهاء غرناطة، وكان ملازماً للامير باديس، ويعتقد انه كان من فقهاء الشيعة المعترين.

ولكن يوسف كان يحسده فنقم عليه وابعده من غرناطة، فسكن الفقيه اليرة القربيّة منها وانقطع إلى العبادة والزهد. ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود في شعره ووعظه حتى وقع الانفجار وتم القتله بهم ، بعدما تم اكتشاف موأمرة يخطط لها يوسف لقتل الامير باديس. فهاجم أهل غرناطة بيوت اليهود ومحلاتهم واستولوا على اموالهم ونهبوا دار يوسف وكانت غاصبة بالأموال والذخائر والنفائس، وقتل يوسف وصلبوه على باب غرناطة.

واستطاع حكم باديس بضعة اعوام أخرى وتوفي في العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هجرية / ١٠٧٣ م، بعد حكم دام ٣٧ سنة. والاليري هو أبو اسحاق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي، توفي سنة ٤٥٩ هجرية، بعد ان شهد آثار تحريضه في

بطش صنهاجة باليهود، وقصيدته المشهورة هي :

بدور الزمان واسد العرين تقر بها عين الشامتين ولو شاء لكان من المؤمنين وتأهوا وكانوا من الأذلين وقد جاز ذلك وما يشعرون	الا قل لصنهاجة اجمعين لقد زل سيدكم زلة تخير كاتبه كافرا فعز اليهود به وانتخوا ونالوا منهم وحازوا المدى ومنها :
---	---

تصيب بضنك مرمى اليقين وقد بغضوك الى العالمين وقارنته وهو بش القرین	اباديس انت أمرء حاذق فكيف تحب فراغ الزنا وكيف استنمت الى فاسق
--	---

وكان باديس بن حبوس من اعظم ملوك البربر في عصر الطوائف واقواهم. وكانت دولته من اكبر الدول في الأندلس بعد الدولة الحمودية اذ كانت رقعتها تمتد من بسطة شرقا حتى استجة ورندة غربا ومن بيسة وجبان شمالا حتى البحر جنوبا. وباديس هو الذي مصر مدينة غرناطة وغدت منذ عهده من اهم قواعد الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ قصبة غرناطة فوق انقاض قلعتها القديمة وسميت باسمها القديم - القلعة الحمراء - وهو الاسم الذي خلد على العصور، وغدا فيما بعد علما على حراء غرناطة، واقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه، وانشا سورا ضخما حول الربوة التي تقع عليها القصبة.

كما انشأ قصبة ملق المنيعة والتي لا زالت آثارها قائمة لحد هذا اليوم، وانشا جيشا مرابطا من قومه صنهاجة وغيرهم وبذل المال الوفير ووطد الدولة ونظم مراتبها وعمالاتها. ويقول عنه ابن حيان المؤرخ (انه ارفع ملوك البربر في هذا الوقت شيئاً واسدهم سلطانا واكثرهم رجالا واسعهم اعمالا ، املى النصر العزيز على الاعداء املاء و اختيار...)

ويقول عنه ابن الخطيب : (كان رئيسا يسسا جبارا طاغية شجاعا داهية حازما جلدا شديد الامر سديد الرأي بعيد الهمة ..)

ومن ذلك يظهر لنا بنان غرناطة باسوارها وقصورها وقلعتها هي من تأسيس ملوك

البربر الشيعة من بني مناد الصنهاجية، والتي لازالتاليوم من اعظم المعلم الحضارية لل المسلمين الشيعة في الأندلس ، ولكن مع الاسف كثير من المؤرخين يتتجنبون ذكر الشيعة وفضلهم على الحضارة الأندلسية. كما ان حنش بن عبد الله الصناعي هو احد القواد الذين دخلوا الأندلس ، وكان من اصحاب الامام علي ع و قد تبوء هذا القائد مناصب مهمة في الأندلس ، ويعود له الفضل في تأسيس جامع قرطبة وجامع البيرة (غرناطة) وجامع سرقسطة.

ولكن هناك من ينصف في ذكر هذا الدور الريادي للشيعة في بناء الادب والثقافة والفن ، مثل الدكتور المصري محمود علي مكي حيث يقول :

(..... وكانت مدايا شعرائهم مختلف عن مدايا غيرهم لما فيها من الحرارة والاخلاص وهو ما يفتقر اليه شراء المديح عموما في الشعر العربي.)

ولما توفي باديس جاء من بعده حفيده عبد الله بن بلقين وكان صبياً حديثاً، لهذا فقد تولى تدبير الدولة ورعاية الصبي الوزير سماحة وهو أحد شيوخ صنهاجة وكان هذا الوزير رجلاً حازماً قوياً العزم شديد السلطة مرهوب الجانب. فقضى الدولة واستأثر بالسلطة واحسن السيرة. ويذكر انه لما سقطت طليطلة بيد النصارى اتفق عبد الله بن بلقين مع امراء الطوائف لاستدعاء امير المؤمنين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين للحد من اعتداءات النصارى على المسلمين، وفعلاً دخلت جيوش المرابطين الأندلس وحدثت معركة الزلاقة التي انتصر بها المسلمون على النصارى. ثم سيطر المرابطون على الأندلس وأصبحت تابعة لدولتهم، وبذلك انتهت دول الطوائف.

وكان عبد الله قد نقله المرابطون إلى المغرب مع عدد آخر من امراء الطوائف، وبقي هناك منفياً في مدينة أغمرات، وكتب كتابه بعنوان (كتاب التبيان). وقد اعتمد عليه المؤرخون في كشف الحوادث والأمور السياسية والاجتماعية التي عاشها هذا الامير الصنهاجي في عصر الطوائف.

الامارات البربرية الشيعية والموالية في جنوب الأندلس

إلى جانب دولة بنو مناد أو بني زيري في غرناطة تقوم ثمة إمارات بربرية أخرى في هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، وقد قامت هذه الممالك إلى جانب شقيقها الكبرى دولة بنى مناد الصنهاجية وكانت مملكة غرناطة تتوى الحماية والدفاع عنها كلما داهمها خطر من الخارجين عليها وكانت هي نفسها تلف حول غرناطة كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة في هذه المنطقة يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية ذلك أن المثلث الأسباني الجنوبي هو أقرب شبه الجزيرة إلى المغرب بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الظروف أمراً ميسوراً وكذلك تستطيع الإمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة.

وكانت الإمارات التي تقع قرب غرناطة أربعة إمارات هي:

- ١- إمارة بنو يفرن في رندة، وتقع بين أشبيلية والجزيرة الخضراء.
- ٢- إمارة بنى خزرون في شذونه واركش، وتقع جنوب شرق أشبيلية.
- ٣- إمارة بنى دمر في مورور، وتقع قرب وادي لكه غرب أشبيلية.
- ٤- إمارة بنى بربزال في قرمونه، غرب غرناطة.

- إمارة بنو يفرن في رندة -

وبنوا يفرن من قبيلة بربرية من بطون زناته وكانوا في المغرب وقد آمنت بالدعوة الفاطمية ودافعت عنها وتشييعت وحدثت معارك شديدة بينها وبين عامل المنصور على المغرب، ولما عبر بنو يفرن إلى الأندلس أيام المنصور أصبحوا جزءاً من الجيش والدولة أسوة بإخوانهم من بنى زيري الصنهاجية ولما انتهت الدولة العاميرية وأضطربت نار الفتنة، استقر بنو يفرن في ولاية تاكرونا واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً

لرياستهم، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفريني. ويُذكر أن ولاته بدأت بعد وفاة إدريس بن علي بن حمود سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م، وكانت تشمل أراضي ولاية رية ما بين وادي لكة والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع القلاع الأندلسية الجنوبيّة.

وبعد وفاة أبو نور خلفه ولده أبو نصر فتوح بن أبي نور وكان عادلاً حسن السيرة، ولكن المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية كان يترصد له فدبّر له مكيدة وقتلّه ثم استولى على رندة وأعمالها وكان ذلك في سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م.

- إمارة بني خزرون في أركش -

وبني خزرون من أبناء قبيلة برنيان أو أرنينان من زناته، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العاميرية، وقد ظهر أيام الفتنة واستقر في مدينة قلشانة بكورة شدونة على مقربة من أركش والتي تقع جنوب شرق أشبيلية سنة ٤٠٢ هـ.

ثم تغلب على أركش المنيعة وأقام فيها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة لها، وتلقب بعاصمة الدولة، وكان زعيماً جسوراً مقداماً سفاكاً للدماء فهابه الناس، واستمر في الحكم حتى سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩، وكانت هذه الأماراة في زمن بن حمودتابعة لها ورافعة علم الدولة الحسينية الأدرسيّة وكانت إلى جانبها في حروبها ضد الخارجين على الخلافة الحموية.

وكان أحد زعماء بني خزرون وهو سعيد بن خزرون قد ولّه الفاطميون ولاية طبنة سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م، ثم من بعده عليها ابنه فلفل بن سعيد ولما توفي أبو عبد الله محمد بن خزرون خلفه ابنه عبدون بن خزرون وبقي في حكم الولاية خمسة وعشرون سنة ثم قتل، ثم خلفه أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم وأخذ يحسن بلاده ويتأهّب لمقاومة ابن عباد صاحب أشبيلية الذي لم ينفك من التآمر على هذه الإمارة والإغارة عليها وتخريبها حتى استطاع من قتل الأمير محمد بن خزرون وضمّها إلى مملكة أشبيلية سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م.

- إمارة بنى دمر في مورور -

وتقع هذه الإمارة البربرية في المنطقة الجنوبيّة من الأندلس قرب وادي لكه حتى البحر غرب أشبيلية وهي رقعة صغيرة تحيط بمدينة مورور أو مورون، وكانوا بنى دمر من بربتونس ومن بطون زناه وهم خوارج أباضية وفديهم أبو تزيري إلى الأندلس أيام المنصور وخدم كسائر زملاؤه الرعاء البربر في الجيش، وانحاز أيام الفتنة إلى تلك المنطقة واستقر بها وبسط عليها سلطانه.

ولما توفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م، خلفه ابنه نوح بن أبي تزيري واستمر في حكمها ثلاثين سنة ثم توفي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠١٤ م، فخلفه ولده محمد بن نوح، وكان فتى غرّاً وجندياً جاهلاً خلواً من الفضائل بيد أنه كان مقداماً وجسوراً واستطاع بجرأته وصرامةه أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه، ثم قُتل، وجاء من بعده ابنه مناد بن محمد بن نوح وسار على نهج أبيه في الصرامة والشدة والخزم... ولكن ابن عباد يكرر الاغارة على اراضيه ويحرق بلاده وزروعه، ولما شعر مناد أنه عاجز عن مواجهة ابن عباد وإجرامه قرر الاستسلام والتخلّي عن مورور وما يتبعها من حصون وكان ذلك سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م.

وانتهت بذلك إمارة بنى دمر الصغيرة، وكانت هذه الإمارة قد بايعت بنو حمود بالخلافة وأقرت لهم الولاية وكانت لهم العون والنصير في حروبهم مع بنى أمية.

- إمارة بنى برزال في قرمونة -

وتقع هذه الإمارة بين قرطبة وأشبيلية وقاعدتها قرمونة التي تقع شمال شرق أشبيلية، وكانت تشمل قرمونة مدينة استجه الواقع شرقاً ومدينة المدور الواقع غرب قرطبة على نهر الوادي الكبير، وقد حكمها أبو عبد الله محمد البرزالي وكانوا بنى برزال يتتمون إلى بطن من بطون زناه من بنى يفرن وكانوا يقطنون بالغرب ثم عبرت بنو برزال الزناتيين إلى الأندلس أيام المنصور وما سقطت الدولة العاميرية استقر أبو عبد الله محمد البرزالي في قرمونة وكان نداً لبني حمود وبنى مناد، وقد حكم

قرمونة ثلاثين عاما ثم توفي سنة ٤٣٤ هجرية / ١٠٤٢ م. وجاء من بعده ابنه عزيز الملقب بالمستظهر ولكن لم يستطع مقاومة ابن عباد في مضائقته لأخذ قرمونة، حتى اضطر إلى التخلي عنها سنة ٤٥٩ هـ، وبذلك انتهت دولة بنى براز.

وفي فترة معينة خاصة في بداية الخلافة الحموية كانوا بنى براز قد بايعوا واعترفوا بالخلافة الحموية وساعدهم في حروبهم ضد الخارجين عليهم، ولكنهم بعد ذلك أظهروا الخلاف وتحصنوا في قلاعهم.

الحضارة والفكر الشيعي في الأندلس

عندما سقطت الدولة الأموية في الأندلس بعد وفاة المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م، أصبحت هناك حرية للفكر والتعبير والانتشار لمختلف ألوان الثقافة المشرقة بعدها كانت الخلافة الأموية تفرض رقابة شديدة على كل فكر يخالف منهجها في الحكم كما كانت تختار كل ما هو يناسب ويسمن سلامتها سلطتها الروحية والدنوية وترفض كل ما هو مخالف لها، وفي هذه الفترة ظهر حكم الطوائف وانقسمت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة وأصبحت صورة للثقافة والمدنية المشرقة العظيمة، وكانت بغداد في هذا الوقت من أهم مراكز التشيع في العالم الإسلامي بعدما استولى عليها بنو أبويه سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٠ م، وكان عصر بنى بويه في أواخر القرن الرابع الهجري من أزهر عصور الأدب الشيعي.

وقد انتقلت كثير من كتب علماء الشيعة ومفكريهم إلى الأندلس و كان أول من أدخلها إلى الأندلس أبو الحكم عمر عبد الرحمن الكرماني القرطبي، كما انتقلت إلى الأندلس كتب أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وكتب الشريف الرضا مهيار الديلمي وغيرهم من مفكري وشعراء الشيعة الذين أثروا تأثيراً عميقاً على الأدب الأندلسي، كما انتقلت رسائل أخوان الصفا. وقد استفاد الأندلسيون من معظم هؤلاء عن طريق المجموعة الأدبية الضخمة التي ألفها أبو منصور الشعالي النيسابوري والتي تسمى (يتيمة الدهر) حيث كان لها صدى واسع وأثر عظيم على

حركة الثقافة في الأندلس، وكان أهل الأندلس وخاصة مفكريهم وأدبائهم يقلدون وينقلون عن المشارقة في كل شيء حتى في الأكل والملبس، وكان زرriاب قد نقل موضة أزياء بغداد خاصة من بلاط هارون الرشيد إلى قصوربني أمية في الأندلس وعلم الأندلسيين أيضاً طريقة الأكل والطبخ الشرقي، وكان وراء هذه الحركة النشطة للنقل والتقليد عدة عوامل منها أولاً أن كثير من مفكري الأندلس وعلمائهم ذهبوا إلى المشرق للدراسة وطلب العلم وعندما عادوا نقلوا معهم مختلف الكتب المشرقية وأخذوا يتحدثون بها ويدرسون تلاميذهم، كما أن عدد من أمراءبني أمية في الأندلس بعثوا رجالاً إلى المشرق لشراء الكتب ونقلها إلى قرطبة كما حدث في زمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي كون أضخم مكتبة في العالم الإسلامي.

والعامل الثاني لهذا النقل هو الحنين الدائم لعرب الأندلس إلى المشرق والأماكن المقدسة في المدينة ومكة وفلسطين والعراق وإلى بغداد مركز العلم والثقافة والحضارة الإسلامية لهذا فقد دفعهم هذا الحنين إلى السير على خطى المشرقيين ليس فقط في الكتابة والتأليف وإنما في كل شيء.

ويذكر بأن الصاحب بن عباد الوزير الكبير لدولةبني بويه في بغداد لما وصل إليه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه واطلع عليه قال: (هذه بضاعتنا ردت إلينا ضنت أن هذا الكتاب يشتمل على أخباربلادهم وإنما هو يشتمل على أخباربلادنا، لا حاجة لنا فيه)، ومن العلماء المشرقيين الآخرين الذين انتشرت كتبهم ومؤلفاتهم في الأندلس وُنُقل عنهم هم : ابن المفع والجاحظ وابن الكلبي والمرد والأصمuni والمدائني والشيباني وغيرهم..

وكان بديع الزمان الهمданى (١٠٠٧) أول من ابتكر نوع من التتر المنمق والذي يسمى (المقامة) معتمداً على نحو خاص اللفظية للسمع، والمقامة هي عبارة عن وسيلة للتعبير عن موضوعات أدبية واجتماعية وتاريخية ولغوية وعادة ما تكون نقدية نوعاً ما، ويظهر في المقامة عادة أن الشخصيات يسودها الاحتيال والصلعة، كما يظهر ضعف في الحبكة الفنية في المقامة، في المقابل هو الاهتمام والبالغة في اللغة أكثر من الحدث.

وهذا اللون من المقامة أثر تأثيراً كبيراً في رواية الصعلكة الإسبانية وكان اليهود

في الأندلس قد نقلوا وقلدوا هذا النوع من المقامات وظهر واضحًا في الرواية العالمية (دون كيخته) للمؤلف ثربانتس، وقد نقلت مقامات الحريري في القرن الثاني عشر إلى الأندلس وترجمت إلى اللغة الإسبانية، قبل ظهور رواية دون كيخته بعده قرون، ويُذكر أنه ظهر في هذه الرواية أكثر من ٣٥ شخصية إسلامية و٢٢٠ كلمة من أصل عربي بالإضافة إلى الأمثال الشعبية العربية، كما أن شخصية دون كيخته تشبه إلى حد ما شخصية أبو زيد السروجي في مقامات الحريري.

وكان الحريري قد جاء بمقاماته بعد مقامات الهمداني وطورها ووصل فيها إلى مستوى راق من الفصاحة والفن في اللغة وقد انتشرت في العالم الإسلامي والعربي مع شروح لغوية تبسطها وتساعد القارئ العربي على فهمها، ويُذكر بأن هذه المقامات وصلت في حياة المؤلف إلى الأندلس سنة ١١٠٨، على يد أحد الأندلسيين وهو الحاج يوسف القضاوي، فقد اطلع عليها عندما كان يدرس في بغداد، وعندما عاد إلى الأندلس أخذ يشرح هذه المقامات إلى تلاميذه.

كما يذكر بعض المؤرخين بأن الذي قام بنشر مقامات الحريري في الأندلس وتبعها بدقة هو أبو عباس أحمد الشريسي سنة ١٢٢٢م، وقد نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس عدد كبير من العلماء والمفكرين الأندلسيين الذين رحلوا إلى بغداد ودرسو فيها وسمعوا من علمائهم وأدبائهم كما قام عدد كبير من تلاميذ هؤلاء الرحالة الأندلسيين بنشر وتبني الثقافة الشيعية في الأندلس.

ومنهم : محمد بن عيسى القرطبي الذي رحل على بغداد سنة ١٧٩هـ ودرس فيها وأنه أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية إلى الأندلس وعاد ومعه بعض كتب وكيع الجراح وهو من محدثي الشيعة، وقد عرض على هذا العالم القضاء في الأندلس فرفض، كما نقل فقه وعلوم وأداب الشيعة إلى الأندلس عباس بن ناصح الثقفي (١٢٠١هـ) ومحمد بن حيون الحجازي (١٣٠٥هـ) وابن مسرة القرطبي (١٢٢٩هـ) وغيرهم، وسنقوم بدراسة متواضعة وعرض بسيط لحياة هؤلاء الرحالة الأندلسيين وتلاميذهم الذين درسوا في بغداد أو شمال أفريقيا وعادوا وهم من أبرز وأشهر علماء الأندلس.

من رواد الفكر الشيعي في الأندلس

- ابن مسرة القرطبي

وهو أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلي، ولد في قرطبة سنة ٢٢٩هـ / ٨٨٢م، درس في القروان أيام الدولة الفاطمية واعتنق المذهب الشيعي وأصبح من أبرز علماء الأندلس وعندما عاد إلى الأندلس أخذ يدرس تلاميذه العلوم والفقه الشيعي فتأثروا به وساروا على خطه وأثروا على طائفة كبيرة من المجتمع الأندلسي.

وكان ابن مسرة فيلسوفاً وعالماً برع في العلوم الدينية وكان متصوفاً اتخذ من الجبل سكناً له ولذلك سمي بالجبلي. وقد رحل إلى المشرق ودرس هناك آراء الفقهاء على مختلف مذاهبهم وفرقهم، وتأثر بأراء المعتزلة ودور العقل في الحكم بعدما عطلت دوره بعض الفرق الإسلامية الأخرى، كما تأثر باصحاب الكلام والجدل مما يؤشر لنا شدة نبوغه وجذافته.

ثم عاد إلى الأندلس في زمان عبد الرحمن الناصر فأخذت الطلبة تهافت عليه من كل صوب وكان كلامه ساحراً ومنطقه خلاباً غزيراً في علمه وجمال بيانه، وبذلك استطاع أن يشكل مدرسة في آراءه وفكره وعلومه الدينية وأصبح له أتباع ومؤيدون، وقد وضعه بعض المفكرين إماماً في العلم والزهد والورع وأصبحت آرائه وتعاليمه شائعة بين الناس، وحتى بعد وفاته شكل تلاميذه مدرسة بارزة في الأندلس.

ولكن بعض الناس اتهموا ابن مسرة بإظهار البدع والخروج عن الخط العام للجماعة فأأخذ بعض فقهاء السلطة إلى العمل على القضاء على آرائه وطمسمها وقمع كل من يسير على هذا الخط من تلاميذه، واليوم يسمى هؤلاء الفقهاء (وعاظ السلاطين) الذين تضيق عليهم الأرض بما رحبت عندما يروا هناك نوابغ في الأمة تعمل على الإصلاح والتجديد في الفكر والفلسفة والأدب.

وينقل لنا ابن حيان نصوصاً في كتابه المقتبس، من أن فقهاء السنة ذهبوا إلى عبد

الرَّحْمَنُ النَّاصِرُ وَطَلَبُوا مِنْهُ الْقَضَاءَ عَلَى ابْنِ مُسْرَةَ وَآرَاءِهِ وَأَفْكَارِهِ وَلَكِنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ كَانَ يَوْمَ ذَاكَ مُشغُولًا فِي حِرْوبِهِ مَعَ مُعَارِضِيهِ وَمُحاوْلَةِ إِخْادِ الثُّورَاتِ الَّتِي اندَلَعَتْ فِي أَنْحَاءِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَبَعْدِ عَشْرِينَ سَنَةً مِنْ وَفَاهَا ابْنُ مُسْرَةَ صُدِرَ أَمْرٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ بِالْقَضَاءِ عَلَى آرَاءِ ابْنِ مُسْرَةَ وَقَمْعِ تَلَامِيذهِ وَمُؤْيِدِيهِ وَحْرَقِ كُتُبِهِ وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةُ ٣٤٠ هـ.

وَلَيْسَ هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْأُولَى وَلَا الْآخِيرَةُ لِلتَّصْدِيِّ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَكْرِ وَوَصْفِهِمْ بِالْزَّنْدَقَةِ وَالْخَرْوَجِ عَنِ السُّنْنَةِ، فَقَدْ حَدَثَ لِابْنِ حَزْمٍ حِيثُ مُنْعِنُ مِنَ التَّدْرِيسِ فِي مَسْجِدِ قَرْطَبَةِ وَحُرِّقَتْ كُتُبُهُ كَمَا أَحْرَقَتْ كُتُبَ الْفِيلِسُوفِ ابْنِ رَشْدَ، وَيَعِيدُ التَّارِيخُ نَفْسَهُ وَنَرِيَ هَذِهِ الْحَوَادِثُ تَتَكَرَّرُ الْيَوْمَ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ فَقَدْ كَانَتْ آرَاءُ وَفَكْرُ السَّيِّدِ الشَّهِيدِ الصَّدِرِ الْأُولَى بِمِثَابَةِ تَجْدِيدِ لِفَكْرِ الْأُمَّةِ وَانتِشَالِهَا مِنَ الرُّكُودِ وَالْجُمُودِ إِلَى آفَاقِ الْحَرْكَةِ وَالنَّشَاطِ وَالتَّجَدِيدِ، وَكَانَ بَعْضُ النَّاسِ وَمِنْهُمْ بَعْضُ الْفَقَهَاءِ لَا يَرُوقُ لَهُمْ هَذَا التَّجَدِيدُ وَالنَّبُوغُ مِنْ شَابٍ لَا زَالَ فِي مَطْلَعِ الْعَشْرِينَ نَسْتَ وَهُوَ يَقُودُ حَرْكَةً فَكَرِيَّةً عَارِمَةً اَنْشَدَتْ إِلَيْهَا قَلُوبَ وَعُقُولَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَكْرِ وَالثَّقَافَةِ فَسَعُوا لِلْإِطَاحَةِ بِفَكْرِ الشَّهِيدِ وَتَصْفِيَّتِهِ جَسْديًّا وَالْحُكْمُ عَلَى أَتَبَاعِهِ وَمُؤْيِدِيهِ بِالْمَوْتِ، وَذَهَبُوا إِلَى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ فَكِلَّ مَنْ يَمْلِكُ كِتَابًا لِلشَّهِيدِ الصَّدِرِ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ وَيَطَّارِدُ أَفْرَادَ عَائِلَتِهِ.

وَلَكِنْ هَذَا النَّظَامُ الْجَائِرُ وَالْفَاسِدُ لَمْ يَدْمِ طَوِيلًا فَشَاءَتِ الْأَقْدَارُ وَدارَتِ السَّنِينُ وَالْأَيَّامُ وَتَحَقَّقَ قَوْلُ الْإِمَامِ عَلَيْهِ اللَّهُ تَعَالَى (بَشَّرَ القاتلَ بالقتل) فَيَسْقُطُ النَّظَامُ الصَّدَامِيُّ وَيَعُودُ أَتَابَاعُ الشَّهِيدِ الصَّدِرِ وَيَمْسِكُوا الْدُّكْتَاتُورُ وَنَظَامُهُ وَيَنْفِذُوا بِهِمْ حُكْمَ اللهِ، وَيَعُودُ الشَّهِيدُ الصَّدِرُ يُمْثِلُ الْوَجْهَ الْحُضَارِيَّ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَهُنَا نَقْلٌ نَصَّاً لِلْمُؤْرِخِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللهِ عَنَانَ يَسْأَلُ فِيهِ عَنْ صَحَّةِ مَا أُورِدَ بِنَحْيِ حَيَانٍ فِي كِتَابِهِ الْمُقْتَبِسِ حَوْلَ اتِّهَامِ ابْنِ مُسْرَةَ بِالْزَّنْدَقَةِ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ يَوْمَ ذَاكِ:

(فَهَلْ كَانَتْ حَقًا مَا يَصْفُهَا ابْنُ حَيَانَ وَكَمَا تَصْوِرُهَا الْوَثِيقَةُ الْخَلَافِيَّةُ الَّتِي يَنْقُلُهَا إِلَيْنَا، جَمِيعَةً مَارِقَةً مَلْحَدَةً، تَهَدِّدُ الْعَقَائِدَ وَالنَّظَامَ؟ أَمْ هَلْ كَانَتْ حَرْكَةُ تَفْكِيرٍ فَلْسُوفِيٍّ حَرًّا، لَمْ يَسْعِ لَهَا أَفْقَنِ التَّفْكِيرِ الْمُعاصرِ، وَكَانَتْ كَمُعَظَّمِ الْحَرْكَاتِ الْمَهَاجِلَةَ، ضَحْيَةً نَقْمَةِ الْمُتَزَمِّنِ وَالْمُرْجِعِينَ مِنَ الْفَقَهَاءِ وَالْحُكَّامِ، يَدَافِعُونَ بِسَحْقِهَا عَنْ نَفْوِهِمْ وَسُلْطَانِهِمِ الْمُطْلَقِ).)

ويُذكر بأن الأندلس لم تعرف الفلسفة إلا في القرن العاشر الميلادي وعلّ يد ابن مسرة حيث يعتبره البعض رائد الفلسفة الإسلامية في الأندلس حيث شكل مدرسة فكرية حديثة على غرار مدرسة أفلاطون الحديثة، لقد ترك ابن مسرة كثير من الكتب القيمة التي دون فيها آرائه وأفكاره ولكن لم يصل إلينا إلا كتابين هما (كتاب التبصير وكتاب الحروف) وقد انتشرت هذه الكتب في الأندلس والشرق، غير أن بعض العلماء خالفوا آرائه وأنكروها من ساروا على نهج السلف دون تجديد أو تغيير، مما حدى بالسلطات إلى حرق كتبه كما أسلفنا. وذكر المؤرخون بأن الأندلس لم تعرف مفكراً مجدداً كمحمد ابن مسرة، وكان ابن مسرة يخشى من فقهاء السلطة الذين تحجرت عقولهم وأفكارهم، وكان يهوى آراء المعتزلة في إطلاق حرية العقل في التفكير، وبالتالي فقد أثر تأثيراً كبيراً على كثير من مفكري الأندلس مثل بن حزم القرطبي وصاعد الطليطي وغيرهم.

وقد جاء اليوم المستشرق الإسباني المعروف مغيل بلايثيوس فعمل على دراسة واسعة وحقيقة حول آراء وفلسفة ابن مسرة وطبعت ونشرت باللغة الإسبانية. وتوفي ابن مسرة في قرطبة سنة ٩٣١هـ / ١٣١٩م، بعد ما أحدث رجة في صفوف أهل الفلسفة والعلم.

- المنذر بن سعيد البلوطي

وهو ببربر من قبيلة نفزة وقد شغل منصب قاضي الجماعة في قرطبة أيام حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وكان شيعياً معتدلاً، ويذكر أن تشييعه جاء نتيجة كون قبيلته اعتقدت المذهب الشيعي وقد ألف عدد كبير من الكتب التي يظهر فيها آراء المذهب الشيعي وفكرة وعلوم أهل البيت ولكنه إذا جلس للقضاء لا يحكم إلا بمذهب مالك، وتولى أيضاً منصب القضاء في ماردة Merida وما والاها من المدن ثم تولى نفس المنصب في الثغور ومنطقة الجوف وكانت هذه المناطق تنتشر فيها القبائل البربرية حيث كانت مناطق خصبة لانتشار الفكر الشيعي.

ولد المنذر بن سعيد البلوطي في سنة ٢٦٥هـ وتوفي سنة ٣٥٥هـ وكان بارعاً في علوم القرآن والسنّة وله مؤلفات كثيرة في ذلك كما اشتهر بفصاحة اللسان وجزالة شعره.

وكان مكانته وشهرته جاءت بعدهما احتفل الناصر بقدوم رسول ملك الروم صاحب القسطنطينية حيث بدأ الشعراً والخطباء يلقون كلماتهم وشعرهم تمجيداً لل الخليفة وحكمه ثم تقدم خطيباً أبي علي البغدادي والذي يعتبر واحداً من أبرز علماء الكلام واللغة ولكنه تعذر في خطبته وارتبك وسكت فلما رأى ذلك المنذرين سعيد قام فجأةً وأنقذ الموقف حيث خطب خطبة ارجحالية غير مهيئاً لها فذكر محاسب الخليفة وشيد بحكمه وألقى قصيدة في نفس السياق والمعنى مما أثار إعجاب الخليفة والحاضرين وأبهر عقولهم لما سمعوا من فصاحة كلامه وبلايته.

وكان هذه الحادثة سبباً في تقرب الخليفة إليه وشدة احترامه له فأصبح من رجاله الدولة المشهورين ثم وله القضاء في قرطبة.

وذكر المقربي في كتابه نفح الطيب كلاماً كثيراً عن المنذر بن سعيد حيث قال: «قاضي الجماعة في قرطبة، وكان لا يخاف في الله لومة لائم. وكان على متناته وجزالته حسن الخلق كثير الدعاية فربما ساء ظن من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار ثورة الأسد الضاري..».

«وذكر ابن أصبع الهمداني عن منذر أنه خطب يوماً وأراد التواضع فكان من فضول خطبته أن قال: حتى متى أعظم ولا أتعظ وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين وأبقى مقيناً مع الحائرين، كلا إن هذا هو البلاء المبين..»

وكان المنذر متفتاً في ضروب العلوم.. وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه شديد العارضة حاضر الجواب... وكان مع وقاره التام فيه دعاية مستملحة وله نوادر مستحسنة. وكانت فترة ولايته للقضاء ستة عشر سنة في زمن الناصر ثم ابنه الحكم. ومن مؤلفاته هي كتاب «أحكام القرآن، والناسخ والمنسوخ، وغيرها».

كما ذكر المقربي: بأن المنذر (آية حركة وسكن وبركة لم تكن معدة ولا تكون آية سفاهة في تحلم وجهامة في ورع في طي تبسم، إذا جد وجد وإذا هذل نذل وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا أكتسب إثماً ولا أحثقب، ولني قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن.. وناهيك من أعدل أظهرها، ومن فضل أشهرها، ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض، وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا

عجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم..)

ومن شعره في الزهد

وتعامى عمداً وأنت الليب
أن سيأتي الحمام منك قريب
بعد ذلك الرحيل يوم عصيب
لا يداوي إذا أتاك طبيب
ثم تأتك دعوة فتجيب

كم تصابي وقد علاك المشيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير
يا سفيها قد حان منه رحيل
أن للموت سكرة فارتقبها
كم توانى حتى تصير رهيناً

- ابن هاني الأندلسي ٩٣٢ هـ / ١٣٢٦ م

اختلف النقاد في تحديد تاريخ ولادته فمنهم من يذكر أنه ولد سنة ٩٣٢ هـ / ١٣٢٦ م ومنهم من يقول أنه ولد سنة ٩٣٢ هـ / ١٣٢٣ م في أشبيلية على الأرجح.

أما نسبة فيذكر أنه يعود إلى يزيد بن حاتم بن أبي صغرة الأزدي بينما يرون آخرون أنه من ولد روح بن حاتم الأزدي.

وأن والده سعدون نشأ في إحدى قرى المهدية في تونس، وعرف بتشييعه ثم انتقل إلى الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية الشيعية. وهكذا نشأ ابن هاني على مذهب والده وهو التشيع والدعوة إلى مذهب الدولة الفاطمية في الأندلس.

وكان أمير أشبيلية يومذاك قد تأثر بدعوة ابن هاني ومال إليه، ولكن أهل أشبيلية كانوا يعتنقون المذهب المالكي، فنقموا عليه وحاربوه مما اضطره إلى مغادرة الأندلس إلى المغرب. وكان المغرب يومذاك أرض خصبة للتشيع، حيث ظهرت فيها دولة الأدارسة العلوية ثم جاءت الآن الدعوة الفاطمية وانتشرت في بلاد المغرب. وعندما خط ابن هاني الشاعر في أرض المغرب علا شأنه وبرز نجمه، ثم اتصل بقائد جيش الدولة الفاطمية جوهر الصقلي ثم المعز الخليفة الفاطمي وأخيراً أصبح شاعر البلاط الفاطمي.

وكان ابن هاني الأندلسي من فطاحل الشعر العربي حتى لقب بمبني المغرب. وكان قد تبوء عرش الشعر العربي في المغرب لفخامة ديباجة ودقة وصفة وقوه تراكييه

وجمال معانيه.

وكان تشييعه ودعوته للفاطميين سبباً في وضع حد حياته من قبل الخط الأموي. ويذكر بأن الشاعر وجد مقتولاً في برقة من بلاد طرابلس عندما كان يتهيأً لصاحبة الخليفة المعز إلى فتح مصر. كما يذكر بعض المؤرخين مثل ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء. بأن الشاعر وجد مخنوقاً على يد أعدائه الأمويين. وبعد سباع الخليفة المعز بمقتل ابن هاني حزن عليه كثيراً وخاصة أنه كان يفارقه شعراء أهل المشرق.

وكان ابن هاني من أبرز شعراء الأندلس، وعندما حل في شمال أفريقيا أصبح نجماً لاماً. وقد أجمع العلماء على مكانته الأدبية العالية وأنه شعلة متقدة ونبوغاً فريداً أنسد في كل فنون الشعر. ومن شعره الجميل هذه بعض الأبيات المختارة:

ما كان أحسنـه لو كان يلتقط
فـفـاقـع وـظـبـي فيـالـجـو تـخـتـرـط
جـعـد تـحدـرـ منـهـاـ وـأـبـلـ سـبـطـ
مـدـمـنـ الـبـحـرـ يـعـلـوـ ثـمـ يـنـهـيـ

الـؤـلـؤـ دـمـعـ هـذـاـ الغـيـثـ أـمـ نـقـطـ
بـيـنـ السـحـابـ وـبـيـنـ الرـيـحـ مـلـحـمـةـ
غـائـمـ فـيـ نـوـاحـيـ الـجـوـ عـاكـفـةـ
كـأـنـ تـهـانـهـ فـيـ كـلـ نـاحـيـةـ

كما وصف أسطول الفاطميين في القاهرة بالأبيات التالية:

لـقـدـ ظـاهـرـتـهاـ عـدـةـ وـعـدـيدـ
وـلـكـنـ منـ ضـمـتـ عـلـيـهـ أـسـودـ
تـنـشـرـ أـعـلـامـ لـهـاـ وـبـنـوـدـ

أـمـاـ وـالـجـوـارـيـ المـشـآـتـ الـتـيـ سـرـتـ
قـبـابـ كـمـاـ تـرـزـجـىـ الـقـبـابـ عـلـىـ الـمـهـاـ
وـمـاـ رـاعـ مـلـكـ الـرـومـ إـلـاـ أـطـلـاعـهـاـ

ويستخدم نفس الأسلوب أيضاً في هجاء الأمويين بقرطبة:

وـلـأـحـلـتـ بـزـ الـقـنـاـ وـهـوـ شـابـكـ
وـلـكـنـ فـوـلـاـذـاـ غـدـاـ وـهـوـ آـنـكـ
وـلـكـنـهـ فـيـهـاـ الـأـمـاءـ الـعـوـارـكـ

وـمـاـ عـرـفـتـ كـرـ الـجـيـادـ أـمـيـةـ
وـلـأـجـرـدـواـ نـصـلـاـ تـخـافـ شـبـاتـهـ
وـلـمـ تـدـمـ فـيـ حـرـوبـ درـوعـ أـمـيـةـ

ورغم أن ابن هاني قُتل في ربيع عمره ونبوغه إلا أنه احتل مكانه كبيرة في الأندلس وأنه من شعرائها الحالدين.

- ابن شهيد القرطبي ٩٩٢ - ١٠٣٥ م

يعد ابن شهيد من عباقرة الشعر العربي في الأندلس وقد صرخ هو نفسه بذلك وأنها جاءت عن موهبة وسلقة طبيعية وليس عن اكتساب معارف.

وقد اتصل ابن شهيد بالمحموديين العلوين في ملقاً فمدحهم وأشاد بهم فأكرمهوه وأعزوه ومال إليهم وتشييع وطلبوه منه أن يكون شاعراً للبلاد، ولكنه بالأخير اعترض السياسة.

وكان ابن شهيد يعتني بكل أنواع الحداثة لأنها هي التي تعكس نمط حياته في ذلك الوقت وكانت معظم أشعاره تميل إلى الغزل، وكثير ما يستخدم ابن شهيد الرسالة كوسيلة أدبية، وقد حفظ لنا المؤرخ ابن بسام بعض فقرات قيمه لهذا الجانب الغني. وكان أكثر رسائله أهمية هي (التوابع والزوايا) والتي نقلها لنا أيضاً ابن بسام على نحو مجاز، وكان موضوعها الرئيسي هو النقد الأدبي.

وتقوم نظرية ابن شهيد على أن الشاعر أو الأديب يكون كذلك بالفطرة والموهبة وليس بالاكتساب، كما تشير النظرية المعرفة في القدم في الثقافة العربية، حين يصبح تعلم البلاغة والمعارف اللغوية يمثل زاداً علمياً لا غناً عنه.

وابن شهيد نفسه يفخر بأنه لم يقرأ إلا القليل جداً من الكتب وإن ما يكتبه هو ناتج عن موهبة وقريحة.

ويطرح ابن شهيد كثير من الآراء والأفكار الغريبة الشاذة والتي لا يقبلها العقل مثلًّا علاقته بالجن وإن أشعاره توحى إليه من الجن وأن معارفه جاءت من هذا العالم الغير مرئي.

ونقل لنا المؤرخون عدد من القصص الطريفة منها: ذكر ابن شهيد بأن تابعه من الجن أخذه إلى أرض ملهمي الشعراء من الجن اللذين يتسم كل منهم بنفس الملامح التي يميز بها شاعره الذي يمثله أو ينطق بوحيه. فلقى هناك صور أو رموز الشعر العربي العظام وهم: طرفه وأبو تمام والبحري والمتني، ثم ينتقل أرض الكتاب الناثرين حيث عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان. وهكذا يتحدث ابن شهيد عن

نظريته وخياله وإلهامه وتدخل الجن في ذلك الإلهام. وهذه النظريات ليس جديدة وإنما ظهرت في زمن الإغريق والرومان مثل آلهة الشعر والحب وغيرها.

وقد ابتكر ابن شهيد هذه الرحلة مع الجن بينما نرى معاصرة أبو العلاء المعري ابتكر رحلة أخرى إلى العالم الآخر في كتابه رسالة الغفران وقد تأثر بها الأديب والشاعر دانتي في (الكوميديا الإلهية) والتي جاءت بعد عدة قرون من رسالة الغفران، ومن أشعار ابن شهيد :

تولى الحسام بظبي الخدور
و كنت وملتك لا عن قل
وفاز الردى الغزال الغير
ولا عن فساد جرى في ضميري

ويقول ابن شهيد أنه توقف عن هذه الأبيات فظهر إليه فارس جني فقال له أكمل
شعرك بالبيت الآتي:

إذا دام فيه وحال السرور	لمثل ملال الفتى النعيم ومن أشعاره الأخرى
-------------------------	---

فأسأها والنور نائم كالغيد باللجاج العوائم كشف الخدود ولا المعاضم خجلاً فعاذت بالكمائم د العين من لحظات هائم صفحاته من لطم لا طم رقص المائم للمائم فتضاحكت والجو واجم	سهر الحيا برياضها حتى أغتلت زهراتها ومن ثيبات لم تبل وصغار أبكار شكت ورد كما خجلت خدو وشقيق نعمان شكت وغضون أشجار حكت حيث بطفوان الحيا
---	---

ويذكر بأن ابن شهيد كان مصاب بالشلل النصفي، وهو في الثانية والأربعين من عمره لهذا كانت حياته يسودها الكآبة والحزن وانعكس ذلك على قصائده الأخيرة التي ألفها والتي تعد من أقوى الشعر الأندلسي منها قصيده الموجهة إلى صديقه ابن حزم الأندلسي.

وأيقنت أن الموت لاشك لا حرق
بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
وحيداً وحسى الماء ثنى المغالق
فقد ذقتها خمسين قوله صادق
يدا في ملائقي وعند مضائقتي
وحسبك زاد من حبيب مفارق
ذنوبي مما درى من حقائقني

ولما رأيت العيش ولـى برأسه
تمنـت أنـي سـاكنـ فـي غـيـابـه
أـدـرـ سـقـيـطـ الحـبـ فـي فـضـلـ عـيـشـه
خـلـيلـيـ منـ ذـاقـ المـنـيـةـ مـرـةـ
فـمـنـ مـبـلـغـ عـنـيـ ابنـ حـزـمـ وـكـانـ لـيـ
عـلـيـكـ سـلـامـ اللـهـ إـنـيـ مـفـارـقـ
وـإـنـيـ أـرـجـواـ اللـهـ فـيـمـاـ تـقـدـمـتـ

- ابن عبد ربه - مليح الأندلس -

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ولد سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ مـ، في قرطبة على الأرجح وكانت قرطبة يوم ذاك مقر خلفاء وأمراء بني أمية وعاصمة العلم والأدب والشعر والثراء والترف واللهو والغناء، وقد نشأ ابن عبد ربه في هذه الأجواء وكان في بداية حياته عندما كان شاباً يافعاً يميل إلى الغناء والطرب، ثم درس علوم عصره كعلوم اللغة العربية والتاريخ والشريعة وتفقه بالدين.

ويقول عنه المقري في كتابه نفح الطيب: (عالم ساد بالعلم ورأس..... وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره...) وذكر السيوطي نقلاً عن ابن الفرضي: أن ابن عبد ربه عالم الأندلس بالأخبار والأشعار وأديبها وشاعرها، (وأما في الأدب فهو حجته وبه غمرت الأفهام لجته مع صيانة وورع وديانة وورد، وسماه غيره بالعلامة الأديب صاحب كتاب العقد الفريد).

وذُكر أنه تشيع وأظهر حبه للإمام علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام كما انه لا يخفى بغشه وسخطه على خصومه وعلى أولئك الذين آذوا أبناءه فيما بعد، وقد أورد في العقد الفريد أحاديث نبوية كثيرة تبين فضل آل البيت وتبيّن أيضاً تهافت من يغضهم أو من يتعرض لهم بأي نوع من الأذى، ومن ذلك ذكره الحديث النبوي (ويحك عمار تقتلك الفتاة الباغية) والمعروف أن عمار بن ياسر كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام وقاتل معه في معركة صفين ضد جيش معاوية وقد قتله أصحاب معاوية بن أبي سفيان.

وقد أورد ابن عبد ربه هذا الحديث للدلالة على أن الفئة الbagia هم معاوية وجيشه وبني أمية الذين قتلوا عمار، وبذلك فهي إدانة واضحة ورفض لخط بنى أمية وإعلاء الحق الذي يدور مع الإمام علي عليهما السلام حيث دار.

وتراه في مواضع كثيرة يسبه في بيان فضائل الإمام علي عليهما السلام استناداً على الأحاديث النبوية ويدافع عنه وعن مواقفه تجاه بنى أمية والخوارج، وإذا ذكر الحسن والحسين يشي عليهما كما إذا ذكرت مأساة كربلاء تألم وحزن كثيراً وسب يزيد بن معاوية وأعوانه فيقول: (لا رحمه الله).

كما ذم ابن عبد ربه أبو سفيان وذكر عيوبه ومنها، عندما جلس مع عثمان بن عفان وكان ضريراً فقال: تلاقفوها يا بنى أمية كالكرة فوالذي يعتقد به أبو سفيان لا جنة ولا نار.. وكان يقصد بذلك الخلافة وحصرها في عائلة بنى أمية.

وكان ابن عبد ربه في بداية نضوجه لم يتعرض إلى معاوية بالذم، وذكر له أقوال في الحكم والسياسة ولكنها بعدها تعمق وتفقه أكثر بالدين انقلب وأصبح من أنصار الإمام علي وآل بيته عليهما السلام. أما في الشعر والأدب فقد ذكره المؤرخون وأشاروا به ومنهم الشاعري حيث ذكر ابن عبد ربه بأنه (أحد حماسن الأندلس علمًا وفضلاً وأدباً في نهاية الجزائر والحلاء وعليه رونق البلاغة والطلاء..)، وقال السيوطي: (عالم الأندلس بالأخبار والأشعار وأدبيها وشاعرها كتب الناس تصنيفه وشعره..)، كما ذكره ابن خلجان ومدحه: (وله ديوان شعر جيد) وذكر بعض أشعاره.

ويروي لنا المقرئ قصة طريفة حيث يقول: (إن أبي وليد بن عيال لما انصرف من الحج اجتمع مع الطيب في مسجد عمر بن العاص في مصر فقاوضه قليلاً ثم قال له: أنسدني مليح الأندلس يعني ابن عبد ربه، فأنسده:

ورشاً بقطيع القلوب رفينا	يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقاً
درأً يعود من الحياة عقيقاً	ما أن رأيت ولا سمعت بمثله
أبصرت وجهك في سناء غريقاً	إذا نظرت إلى محسن وجهه
ما بال قلبك لا يكون رقيقاً	يا من تقطع خصره من رقةٍ
فلما أكمل إنشاءها استعادها منه وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأثيرك العراق	فلما أكمل إنشاءها استعادها منه وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأثيرك العراق حبواً..)

ويذكر بأن ابن عبد ربه بلغ في الغزل ما لم يبلغه غيره في الأندلس وانتشرت قصائده بين العامة والخاصة، ووُقعت في نفوس الناس موقعاً حسناً، ولكن التربية الدينية التي تلقاها ابن عبد ربه حدث من أقواله وتصرفاته وكذلك كان الحال مع كثير من شعراء الأندلس فلم يبيحوا أو يصرحوا عن معامراتهم بطريقة إباحية أو بما في صدورهم من ميل إلى الغزل أو الحب أو المعاناة والآلام.

ولكنهم استخدمو اطرائق مؤدبة وغير مباشرة أو كما يقول المقرى في وصفه للمنذر بن سعيد البلوطى (آية سفاهة في تحلم وجهامة في ورع) وكما نشاهد ذلك في كتاب طرق الحمامنة لابن حزم القرطبي عالم الأندلس الكبير وصاحب المذهب الظاهري حيث يتحدث في هذا الكتاب عن قصص الحب والغرام لأهل الأندلس.

وكان ابن عبد ربه يملك خيالاً واسعاً في الشعر والصياغة الفنية، مما ساعده أن يكون شاعراً مجدداً ومتذكراً من حيث الرقة والطلاؤة وصدق العواطف، ومن شعره وهو يصف فتاة تبكي:

وكأنما غاص الأسى بجفونها
حتى اتاك بلهؤلؤٍ مشوراً
وفي معنى الفراق والوداع يقول:

يا سقيم الجفون من غير سقم
إن يوم الفراق أفضع يومٍ
ليتنى مت قبل يوم الفراق

وفي آخر أيامه تاب ابن عبد ربه وندم على كل ما فعل وقال في صباح وأنشأ قصائد نقيبة لمقطوعات شعرية قالها في شبابه في الغزل وغيره وسميت هذه القصائد (الممحصات) وفي أقواله في معنى التوبة:

أخوف من أن يعدل الحكم	ياويلنا من موقف ما به
وليس لي من دونه راحم	أبارز الله بعصيائه
أسرف إلا أنه نادم	يارب غفرانك عن مذنب

وأصيب ابن عبد ربه بالفالج ثم توفي وعمره ٨٢ سنة وكان ذلك في سنة ٣٢٨ هـ ودفن في مقبرة بني العباس.

- ابن الدراج القسطلي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن الدراج القسطلي، ولد في محرم سنة ٩٥٨هـ / ٣٤٧ م، في قرية قسطلة دراج من عمل جيان Jaen، وهو أحد شعراء الأندلس العظام ويطلق عليه أحياناً بمتنبي الغرب وهو لقب تنافس عليه مع الشاعر الكبير ابن هاني الأندلسي، وكما يقول ابن حيان: (سباق حلبة الشعراء الأندلسيين وخاتمة محسني أهلها أجمعين..)، وكانت الأندلس أيام ابن دراج القسطلي قد وصلت إلى أوج عظمتها ورقى بها في الأدب والسياسة والعلم والتراث الاجتماعي وبالتالي فقد كان شاعرنا ثمرة هذه الأجواء الحضارية الراقية الطيبة.

وكان ابن دراج قد عاش في زمن المنصور ابن أبي عامر وعمل في بلاطه ١٦ سنة ورافقه في الحرب والسلم وكان من أكثر الشعراء اهتماماً في تسجيل الأحداث التاريخية التي عاشتها الأندلس أيام المنصور وبعد سقوط الدولة الأموية وظهور الفتنة.

إلى جانب ذلك كان ابن دراج له براعة أدبية عالية وصورة جمالية راقية وقوة تأثير كبير جعلت منه أمير شعراء الأندلس واعتبر النقاد ديوان الشاعر ابن دراج وثيقة تاريخية مهمة تعرض بدقة أخبار المنصور وحربه وانتصاراته على أعدائه خاصةً النصارى في شمال بلاد الأندلس وكان قد مدح المنصور في قصائد كثيرة:

إن تفخر الدنيا فأنت فخارها	أو تختر العليا فأنت خيارها
المجد منوع بسيفك عزه	والأرض معمور بملكك دارها
زهيت بذكرك أرضها وسماءها	وجرى بسعدهك ليلها ونهارها

وعندما سقطت الدولة الأموية بعد وفاة المنصور ظهرت دولة بنى حمود العلوية (أحفاد الأدارسة) فاتصل ابن دراج بهم ومدحهم بشعره واحتج بصدق إمامتهم وما إلى التشيع أو تشيع حسب بعض المؤرخين. وكان المنصور قد قرب البربر خاصةً قبائل صنهاجة الشيعية واعتمد عليهم في الحكم وفرض زيهم على رجال الدولة، ولذلك فقد كانت هناك أرضية سابقة للتشيع عاشها ابن دراج في بلاط المنصور الذي يذكر بعض المحليين بأنه مال إلى التشيع.

ويقول في مدح بنى حمود:

وأنتم أئمة فعل وقيل
جميع شبابها والكهول
بحكم الكتاب وحكم العقول

فانت هداة حياة وموت
واسادة من حل جنات عدن
وأنتم خلائق دنيا ودين

وله قصيدة أخرى في مناقب آل البيت:

لكم منه مجد حفي كفيل
على حمل كل عبء ثقيل
إذا ضاق صدر أب عن سليل
ضجياعه بين يدي جبرائيل

ووالدكم خاتم الأنبياء
تلذ بحملكم عاتقة
ورحب على ضمكم صدره
ويطرق الوحي وأنتم

ويذكر أن هذه القصيدة تعتبر من أفضل وخير ما أنتجه الأدب الشيعي في ذلك الوقت وقد انتشرت بين العامة والخاصة واهتم بها رواة الشعر وأفردوها بالدراسة والحفظ.

- عباس بن ناصح الثقفي

يعتبر عباس بن ناصح الثقفي قطب الشعر الأندلسي في عصره، وهو بالإضافة إلى ذلك نراه متعدد الثقافات فكان بارعاً في علوم اللغة والهندسة والفلك، وقد ولاه الأمير الحكم قضاء الجزيرة مسقط رأسه ثم ولـ ابنه من بعده عبد الوهاب بن عباس وكان مثل والده شاعراً نابهاً، ويذكر بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط قد أرسله إلى العراق في التماس الكتب القديمة سنة ٢٠١ هـ وقد صاحب بعض الدارسين في العراق والتلى بعدد من علمائهم ومفكريهم ودرس على أيديهم وتأثر بهم.

ثم رجع إلى الأندلس وهو شيعي وأخذ يدرس تلاميذه الفقه الشيعي، وكان الحكم يقدر ويسعنه في منزلة خاصة بين الشعراء، ففي سنة ١٩٧ هـ / ٨١٢ م، حدثت مجاعة في المناطق الشمالية وقطعت شدید وعاني المسلمون من ذلك كثيراً ومات منهم خلق كثیر، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومساعدة المنكوبين منهم، وقد مدحه الشاعر عباس

في بعض أبياته:

من أن يكون بعصره عسر
ذلك الكريهة جوده الغمر
نكد الرمان فآمنت أيامه
طلع الزمان بأزمةٍ فجلبت له

- بن حيون الحجاري

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيون الحجازي، ولد في مدينة وادي الحجارة القرية من مدرید(مجريط) وهذا سمي بالحجاري، ولكن لم يذكر تاريخ ولادته بشكل مؤكّد، وتوفي في قرطبة سنة ٣٠٥ هـ، ومن هذا التاريخ نستطيع أن نخمن ولادته في الربع الأول من القرن الثاني الهجري.

ويعد ابن حيون الحجاري من العلماء الأندلسيين الذي شاع علمهم وفضلهم حتى تقدم على علماء عصره في ضبط الحديث وإتقانه، وقد رحل إلى المشرق وبقي هناك ١٥ سنة يدرس مختلف العلوم على يدي كبار العلماء والفقهاء في القىروان ومصر ومكة والمدينة واليمن وغيرها من مراكز العلم، وكانت هذه المناطق قد انتشر فيها التشيع في ذلك العصر، وتأثر بهذه الأجواء وأصبح شيعياً وكان يظهر ذلك ويذكر معاوية بسوء ويقول المقري عنه: (كان إماماً في الحديث عالماً حافظاً للعلل بصيراً بالطرق ولم يكن في الأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط متقن حسن التوجيه للحديث صدق..).

وقد أخذ عنه الحديث كثير من العلماء والفقهاء الأندلسيين حتى قال أحدهم وهو خالد بن سعيد: (لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حيون..)، كما يذكر بأن حيون الحجاري كان شاعراً مميزاً حفظ له المؤرخون كثيراً من أشعاره.

- عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني

وهو من أهم شعراء الحمويين الشيعة، وقد اشتهر بقصيدته النونية في مدح إدريس بن يحيى العالى الذي تولى الخلافة سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٦ م، وكان شيعياً عميق الإيمان أظهر ذلك في كثير من قصائده:

ذرفت عيناك بالماء المعين
كمخاريق بأيدي اللاعيبين
وبقلبي زفرات وأنين
ويك لا أسمع قول العاذلين

البرق لاح من أندرين
لعبت أسيافه عارية
ولصوت الرعد زحر وحنين
وأناجي في الدجى عاذلني

وله أبيات أخرى يمدح فيها الحموديين ويضعهم في التقديس منها:

لأيكم كان وقد المسلمين
في الدجى فوقهم الروح الأمين
وجميع الناس من ماء وطين
إنه من نور رب العالمين

يا بني أحمد خير الورى
نزل الوحي عليه فاحتبنى
خلقوا من ماء عدل وتقى
أنظرونا نقتبس من نورك

ويعتقد أن ابن مقانا ولد في مدينة لشبونة عاصمة البرتغال حالياً لهذا سمي
بالأشبواني.

- إدريس بن يمان اليابس

وهو أبو علي إدريس ابن يمان أو اليهاني اليابس وكان من الشعراء المرموقين وقد عاش في جزر البليار في ثالث جزرها التي تسمى اليابسة والتي كانت مشهورة بنبات العرعر، وكانت هذه الجزر في عصر الطوائف تحكمها إمارات إسلامية أما اليوم فهي تابعة إلى الدولة الإسبانية، وقد عاش اليابس في حوالي سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٤٥ م، وكان يوماً في حضرة الأمير علي بن مجاهد العامري أمير مملكة دانيا Dania، فأنشد قصيده:

أسرى بها إذ ليس يسري كوكب
سيدان رمل أوأسود درب
حراء يتبعها خميس أشهب
لما أنار سناء كادت تغرب

ولرب ليلي قد طرقت وهمتي
في عشر شم الأنوف كأنهم
وكان نور الصبح راية فارس
وكان قرن الشمس وجه مجاهد

وعندما انتهى من قصيده اختطف مجاهد القرطاس الذي كتب فيه القصيدة وقربه

من أنفه، وقال وقد سد خياشيمه أن رائحة الشينين (شجر الصنوبر) على شعرك. ويذكر أن أبو علي اليابس عاش تنقلًا بين الإمارات الشيعية في الأندلس وأنه تشيع مدح أمرائها وأكرموه، وكانت الإمارات العلوية تتبادل الرسائل الودية بينها وبين الفاطميين في شمال أفريقيا، وكانت هناك رسائل بين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م، وبين علي بن مجاهد العامري صاحب دانية Dania.

- ابو بكر ابن السراج

وهو محمد بن عبد الملك بن محمد السراج الشنيري، أحد أئمة اللغة العربية البارزين. قدم مصر من الأندلس سنة ١٥٥ هـ وأقام فيها وأقرأ الناس العربية وكان ذلك أيام الدولة الفاطمية، وقد ذكر المقرى بأن أبو بكر ابن السراج كان يدرس في جامع مصر النحو، وربما كان جامع الأزهر الشريف الذي أسسه الفاطميون حيث يدرس فيه مختلف العلوم ويقصده طلاب العلم من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكان يدرس فيه الفقه الشيعي إلى جانب المذاهب الأخرى.

ولابن السراج كثير من المؤلفات منها (تنبيه الألباب في فضل الأعراب) وكتاب في العروض وكتاب (مختصر العمدة) لابن رشيق وتنبيه أغلاطه، وكان أبو بكر قد تأثر بالدعوة الفاطمية وتشيع وتوفي سنة ٤٩٥ هـ وقيل ٥٤٥ للهجرة.

- الشريف الادريسي -

يعتبر الشريف الادريسي ابو الجغرافية الطبيعية والبشرية وقد اشرف على اول بعثة علمية عرفتها الدنيا، وقد وضع اكثر من سبعين خريطة للازمات، وصنع اول كرة ارضية من الفضة كبيرة الحجم عليها الاقاليم والانهار والطرق وغيرها.

وهو محمد بن عبد الله الادريسي ولد في سبتة في المغرب عام ٤٩٣ هجرية / ١١٠٠ م، ويتبع إلى اسرة الادارسة العلوية الذين انشأوا لهم دولة في المغرب سنة ١٧٣ هجرية وهي دولة الادارسة وآخرى في الأندلس هي دولة بني حود سنة ٤٠٧ هجرية.

وعندما بلغ من العمر ١٦ سنة بعثه والده إلى قرطبة للدراسة على أيدي علمائها

وفقهائها، وكانت قرطبة يومذاك حاضرة العلم والثقافة في غرب العالم الإسلامي وواحة للمعرفة والفن في أوربا باسرها. واستقر محمد الأدريسي في قرطبة عند أحد أقرباءه، ثم اخذ يتردد على حلقات الدرس في مسجد قرطبة الجامع ويجلس الى العلماء والفقهاء ومنهم فلاسفة ورياضيون وجغرافيون وفلكيون. ودهش محمد عندما رأى اطفال المدارس يدرسون الجغرافية على خرائط ويديرون بينهم كرة ارضية عليها اليابس والبحر والاقاليم والمدن.

انقطع محمد عن الدرس وبدأ بالسفر يجوب ديار الأندلس مدنها وقرابها وجبارها وانهارها. فقد زار لشبونة عاصمة البرتغال ثم عبر البحر وزار سواحل انكلترا الجنوبيّة وسواحل فرنسيّة الغربية وتعلم اطرافاً من الحديث بالإنكليزية والفرنسية. وكان محمد تراوده نفسه وهو في قرطبة لزيارة جزيرة صقلية حيث احتلها النورمان قبل ٤٠ سنة من مولده وان له اقارب هناك من الادارسة منبني حمود الذين نزحوا اليها من الأندلس.

وكان العرب قد احتلوا صقلية واستقروا بها مائتين وخمسين سنة وجعلوها ملتقى لحضارتي الشرق والغرب. وكان حكم الملك روجر الثاني قد عمّت فيه المساوات والاخاء بين الروم الفاتحين والعرب سكان الجزيرة، وبلغ حرص عقلاه النورمان على بقاء العرب المسلمين في الجزيرة، علماء وتجار وحرفيين ومزارعين وانهم اي النورمان قد تعلموا اللغة العربية قراءة وكتابة.

وضلت اللغة العربية هي لغة الدوّاين ورسائل الحاكمين وصارت النقود تسك وعليها شارات الاسلام والنصاري وعبارة - لا اله الا الله محمد رسول الله - وكانت علامه الملك بالعربية وهي - الحمد لله حق حمه - كما ابقى النورمان حكام المسلمين وقوادهم في مناصبهم مع شيوخهم وقضائهم، وهو عكس ما حدث في اسبانيا عندما احتل النصارى الأندلس، حيث اجبروا المسلمين على التنصير ومنعوهم من التحدث بالعربية وصادروا املاكهم وحرقوا المخطوطات العلمية.

وكان الملك روجر الثاني عادلاً وحسن السلوك، وكان حريصاً ان يضع فوق ثيابه عباءة مطرزة بزخارف اسلامية، ومجالسة العلماء المسلمين كل ليلة يتحدث اليهم في

امور العلم والمعرفة، وقد تشبهه بملوك الشرق في بلاطاتهم وقصورهم، حتى اتهمه رجال الدين من النصارى بأنه اعتنق الدين الإسلامي. وهذا ما يذكرنا بملك الحبشية عندما فر اليه المسلمون هرباً من اضطهاد قريش واحتضنهم ورعاهم حق رعايته. وقيل انه اسلم، وقيل ان الرسول - ص - عندما علم بمماته ترحم عليه وصلى ركعتين له.

ويذكر بان الملك روجر الثاني سمع عن الادرسي ومكانته العلمية فوجه اليه رسالة يدعوه فيها الى القدوم الى صقلية، وقد حملت الرسالة بعثة من رجاله حيث رافق الادرسي هو واهل بيته الى صقلية. وعندما وصل الادرسي صقلية استقبله الملك وانزله في قصره في - بالرم - عاصمة صقلية، ثم اجرى له راتباً شهرياً. واخذ محمد الادرسي يفكر بالاسفار والرحلات وتمنى ان ينفق الملك على اسفارة ليؤلف كتاباً كبيراً عن الملك والمداين واقطار الارض واهلها ويزوده بالخرائط.

ثم طرح الادرسي الفكرة على الملك فرحب بها واقتراح عليه ان يختار مائة رجل يسافرون في الارض بدلاً منه وبذلك يختصر الوقت وحتى لا تضيع عشرات السنين من البحث والسفر قد لا يتسع عمر الملك والادرسي في انجاز ذلك الكتاب الجغرافي الكبير. وهكذا بدأ الادرسي يخطط ويختار الرجال الاكفاء ويدربهم على المشاهدة في ارجاء صقلية. وعندما اطمأن قلبه اعطي الاشارة فانطلق الرجال في البحر الى اصقاع الارض. وربما كان هؤلاء اول بعثة علمية تجوب ممالك العالم في القرن السادس الهجري - الثاني عشر ميلادي - .

وبعد عدة سنوات اثمرت جهود الادرسي ورجال بعثته كتاباً ضخماً عنوانه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . وهو الكتاب الذي طارت به شهرته بين علماء الشرق والغرب من الجغرافيين على مر العصور. وقد استغرق العمل به ١٥ سنة وتوفى الادرسي في عام ٥٦٠ هجرية / ١١٧٥ م.

وكان الاوريون اكثر اهتماماً بالادرسي من العرب، حيث عرفوا قدره ومكانته في الجغرافية وعمل الخرائط وادب الرحلات فترجموا - نزهة المشتاق - الى لغاتهم واعادوا نشر خرائطه، وكان لهم الفضل في اصدار اول طبعة من هذا الكتاب في

مطبعة - الميدتشي - في روما في نهاية القرن السادس عشر ميلادي، وهي اقدم طبعة اوربية ظهرت لهذا الكتاب بحروف عربية، تلتها بالغرب طبعات اخرى. واعتبر المستشرقون كتاب - نزهة المشتاق - وخرائطه افضل ما كتب في الجغرافية في العصور الوسطى وبعضهم لايزال يعتبره افضل مرجع الى يومنا هذا عن بعض اجزاء الارض حيث حفظ لنا معلومات وفيه عن اوربا الشمالية والغربية واسكتلندا وسواحل بحر الشمال وبلاد البلطيق وبولندا ورومانيا وشبكة جزيرة البلقان.. ارضا وشعبا واقتصادا وحياة وغير ذلك.

وفي سنة ١٩٥١ طبع المجمع العلمي العراقي خرائط الا درسي عن الكره الارضية لأول مرة اعتنادا على كتب من كمبات باريس واكسفورد واستامبول وروما. وقد نادى المستشرق - جولد تسيهر - العرب في كافة اقطارهم الى طبع هذا الكتاب - نزهة المشتاق - كاملا بخرائطه. ولكن مع الاسف لحد هذا اليوم لم يقم احد بهذه المهمة العلمية الكبيرة في نشر تراثنا العظيم، بينما كان الاوربيون لهم السبق في ذلك والاستفاده منه فائدة عظيمة.

دولة المرابطون

المرابطون هم جماعة من قبيلة ملتنونه، وهي بطن من بطون صنهاجه أعظم قبائل البربر. وكان زيري بن مناد أحد زعماء صنهاجه قد بايع الفاطميين وتشيع وحارب إلى جانبهم كما كان ابنه بلكين قد ولاه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولاية إفريقيا.

وكانت قبيلة ملتنونه تسكن منذ عصور قديمة قبل الإسلام في قلب الصحراء ما بين جنوب المغرب والسودان، وكان يسودها الفقر والانفراد وكانوا يعتمدون في قوتهم على لحم الأبل وليبها وكان شعارهم اللثام لهذا فقد عرموا - بالملشين -

وكان يحيى بن ابراهيم الجداي أحد زعمائهم رحل إلى المشرق لطلب العلم ثم رجع ومعه عبد الله بن ياسين الجزوئي وهو من منطقة السوس الأقصى وقد اتفق الاثنين على تعليم وتنقيف قومهم بتعاليم الإسلام. ووصل الاثنين الصحراء فأغتبطت بقدومهما لملتونه وكداره.

ولكن لم ينجحا في مهمتهما فقررا الاثنين على مغادرة هولاء والانقطاع إلى العبادة والزهد في أحد المناطق النائية. وأنظم اليهما عدد من الأفراد من كتابه وكداره. وأبتووا هناك رابطة للصلوة والعبادة. ولما ذاع أمرهم وأشتهر وفد عليهم كثير من أشراف صنهاجه من أثروا الزهد والعبادة وبدأ عبد الله يغضبه ويشففهم وسهام (المرابطون).

وتکاثرت المرابطون وأصبح عددهم بضعة الآف، حيث نزح عبد الله بن ياسين واستدعي أشيخ القبائل وو عظهم وحدّرهم عقاب الله ونصحهم بأتّابع حكماته، ولكنه لم يلقى منهم سوى الاعراض. فعندئذ قرر عبد الله وأصحابه اعلان الحرب، فقاتل كداره وملتونه وضيق عليهم حتى اذعنوا للطاعة وبايعوه على الكتاب والسنّة. ثم سار لقتال مسووفه فاطاعوه. وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجه واحدة بعد الأخرى حتى خضعوا جميعاً.

وجعل عبد الله السلطة والحكم بيد يحيى بن ابراهيم الجداي أحد زعماء ملتونه. وإن

كان هو اليه يرجع الامر والنهي ولما توفي يحيى ندب عبد الله مكانه للرياسة يحيى بن عمر بن تاكاين اللمتوني.

وكان يحيى بن عمر أميراً ورعاً وزاهداً وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين. وقام هذا الامير بعدة حملات وفتح جميع جهات الصحراء وغزا بلاد السودان وانحائه واصبحت حركة المرابطون تأخذ صداتها في كل انحاء المغرب.

وكان يومذاك هناك صراع بين الامارات العلوية وبين خلفاء قرطبة الامويين بالإضافة الى تغلغل النفوذ الفاطمي في هذه المناطق الذي اخذ يشتد بعد انتصار امر دولة الادارسة. واصبح متصرف القرن الخامس الهجري مسرحاً للحروب بين الشيعة وخلفاء قرطبة الامويين وكانت هذه الظروف السيئة دعت فقهاء واشراف درعة وسلجامة وغيرهم يكتبون (سنة ٤٤٤ هجرية) الى عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتوني وأشياخ المرابطين يدعونهم الى انقاذ المسلمين من هذه الفوضى العارمة والنيران المحرقة.

وفي سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم في اعداد كبيرة وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتوني وقصدوا اولاً مدينة درعة واستولوا عليها ثم ساروا الى سلجماسة واستولوا عليها ايضاً وهكذا بدأت الجيوش المرابطية تزحف على المدن المغربية وتسقط الواحدة تلو الاخرى. وبعد وفاة يحيى اللمتوني جاء اخاه ابا بكر بن عمر. وفي سنة ٤٤٨ هـ سار المرابطون نحو السوس وجعل الامير ابا بكر في مقدمة الجيش ابن عممه يوسف بن نافسين اللمتوني وسيطروا عليها ثم تقدمت جيوش المرابطين الى جبال الاطلس وقصدوا بلاد المصامدة وفتحوها.

وكانت قد نشببت معركة طاحنة بين جيوش المرابطين والبربر من قبيلة برغواطة وأصيب عبد الله بن ياسين بجروح ثم توفي في نفس اليوم وكان ذلك في الرابع والعشرين من جماد الاول سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ودفن في مكان يعرف بكريفله او كريفلت على مقربة من تامسنا وأقيم على قبره مسجداً ما يزال مزاراً قائماً حتى اليوم.

وفي الحال تم اختيار ابا بكر بن عمر اللمتوني خليفة لعبد الله بن ياسين اللمتوني. ثم قسمت جيوش المرابطين الى قسمين يتولى امر احدهما يوسف بن نافسين والآخر

ابا بكر بن عمر ليتم بها اخضاع المغرب بأكمله تحت راية دولة المرابطين. ولما تمضي عدة شهور حتى سيطر يوسف بن تاشفين على نواحي المغرب الجنوبي والوسطى ثم سار الى فاس وطنجة وغيرها واستولى عليها جميعا.

وتوفي ابا بكر بن عمر اثناء قتاله في الصحراء وخلفه يوسف بن ناشفين في الامارة، ثم استطاع يوسف من القضاء على سائر سلطان الامراء المحليين وبذلك شمل سلطانه جميع الاقطار المغربية حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الاطلسي غرباً، وهكذا قامت دولة المرابطين.

وفي الوقت الذي اعلن المرابطون دولتهم في المغرب كانت الأندلس مقسمة الى امارات مستقلة وكانت الفتن والاحروب قائمة فيما بينها مما اضعفها وزعزع استقرارها وفرق كلمتها واصبحوا شيئاً.

وبالتالي اندفع النصارى من الشمال للسيطرة على المدن والمحصون والاراضي الاندلسية ولم يكتفوا بذلك وانما فرضوا الاتواة والضرائب وطلبوا منهم الحصون تلو الحصون دون توقف كما ذهبوا الى أكثر من ذلك حيث تذكر المصادر الإسلامية بان الفونسو السادس طلب من المعتمد بن عباد امير اشبيلية أن تضع مملكة قشتالة حملها في جامع قرطبة.

وهكذا اخذ النصارى يذلون ويهينون الامراء المسلمين ومقدساتهم وأخذوا مدنهما وأراضيهم، كل ذلك عمل ضجة في صفوف فقهاء الأندلس وتعالت صيحات الاستغاثة فاجتمعوا مع أمراء الطوائف وقررروا الاستنجاد بالمرابطين لانقاذ الأندلس من خطر النصارى الزاحف دون هوادة أخيراً زحفت جيوش المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وحدثت معركة الزلاقة بين جيوش المرابطين والجيوش الاندلسية من جهة وبين النصارى بقيادة الفونسو السادس من جهة أخرى، وقد حدث ذلك في رجب ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، وانتصر فيها المسلمون على النصارى انتصاراً تاريخياً قل مثيله وسحقت جيوشهم ولم يقبى سوى نفراً قليلاً هربوا مع الفونسو السادس قافلين إلى طليطلة.

والزلاقة بطحاء تقع في إقليم بطليموس في غرب الأندلس حيث حدثت فيها أعظم

معركة وأعظم انتصار في التاريخ الإسلامي ويدرك المؤرخون ان هذا الانتصار ابعد النصارى وحفظ الأندلس وأخر سقوطها ثلاثة قرون، ولكن الخلافات والتناحرات عادت مرة ثانية بين أمراء الأندلس مما اضطر يوسف بن تاشفين ان يعبر إلى الأندلس مرة أخرى ويخضعها إلى حكم المرابطين ويقيد بعض أمراءها وينقلهم إلى المغرب مثلما عمل مع المعتمد بن عباد أمير أشبيلية. وكان استيلاء المرابطين على الأندلس وحكمها في أوائل سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠ م.

لقد أصبحت الأندلس ولاية تابعة لحكم المرابطين واحتفى عصر الطوائف ومنها الإمارات العلوية الشيعية وتغطت الأندلس على الأقل من الظاهر برياح الثقافة الصحراوية فبدأت تتشابه مع الأراضي أو المناطق البربرية وبدأ الأندلسيون يغطون رؤسهم بالعمائم ولم يلبسوها حتى ذلك الحين في الوقت الذي لا يضعون فيه الأغطية او اللثمة السوداء التي وضعها المرابطون على محياهم واحفوا به وجوههم.

وعاشت الأندلس تحت سيطرة رجال الدين من الاصوليين والفقهاء وأخذ الشعراً يشكرون من قسوة حكامهم الجدد الذين لا يقدرون قصائدتهم مقارنة بزمن كانت الثقافة والشعر يحظى بتقدير بالغ وهو عصر الطوائف.

دولة الموحدين

يعتبر محمد بن تومرت أعظم داعية في العالم الإسلامي والذي قام بحركة دينية واسعة سرعان ما انتشرت في بلاد المغرب وادت الى القضاء على دولة المرابطين وقيام دولة تعتبر من أعظم الدول الإسلامية هي دولة الموحدين الكبرى.

ولبست هذه الحركة ثوب المهدي والتشييع والانتهاء الى اهل البيت وحبهم، ويبدو ان معظم الحركات الإسلامية الثورية التي قامت ضد الحكام الجائرين والظلمة كانت ترفع شعار الولاء لآل البيت وتلقب بالثورة المهدية كما حدث مع الدولة العباسية حيث رفع دعاتها الأوائل شعار (يا ثارات الحسين) وانهم جاءوا للنصرة آل البيت من الظلمة الامويين. وهي محاولة منهم لاضفاء شرعية لحركتهم وكسب قاعدة شعبية واسعة وكبيرة في المجتمع.

وتلقب محمد بن تومرت بالمهدي، وتعتبر حركته هي الثانية في المغرب العربي الإسلامي، وكانت الاولى هي حركة الشيعة التي اسفرت عن قيام الدولة الفاطمية في تونس ثم انتقالها الى مصر، وسيطرت على شمال افريقيا وكان معظم ولاتها من البربر مثل بلکین الصنهاجي، وكانت القبائل البربرية هي مادتها الأدبية الأساسية التي استندت عليها عند قيامها في المغرب.

على ان غالبية القبائل البربرية قد اعتنقت المذهب الشيعي والسبب يعود هو ان التشيع اخذ صبغة ضد التعصب القومي العربي من جهة ومن جهة اخرى هو ان الحكام الامويين وبعض القبائل العربية تعاملوا بغلظة وشدة مع البربر. مما دفعهم الى تأييد دولة الادارسة والدولة الفاطمية والتخندق خلفها ضد خلفاءبني امية وبني العباس.

كانت حركة محمد بن تومرت (المهدي) هي حركة مغربية مستقلة بدت في كونها حركة دينية اتخذت اسلوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر شعاراً لها كما ان ابن تومرت ادعى انه يعود نسبه الى اهل البيت وانه يدعو الى الاعتقاد بالمهدي المتظر عليه السلام

والتي هي من عقائد الشيعة الامامية في الاصول.

ويذكر المؤرخون والمحللون بأن حركة ابن تومرت ليس حركة مذهبية شيعية ضد مذهب اخر كما هو عند الدولة الفاطمية، ويمكن ان نقول عليها في اقصى شيء انها تدعو الى حب ال البيت والاعتقاد بالامام المتضرر عليه السلام هذه الشعارات رفعت في بداية الحركة واخذ ي العمل ويسير بها سنين طوال. ولكن بعد ذلك اختلفت الامور وتحولت الحركة الى حركة سياسية ثورية تعمل على الاطاحة بدولة المرابطين.

ومحمد بن تومرت هو رجل من قبيلة هرغه احدى بطون مصمودة الكبرى ولد في ضيعة تقع جنوب السوس الاقصى تسمى - بجلي ان وارغن - وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته منها ٤٧١ و ٤٩١ . اما نسبة فأيضاً اختلفوا فيه فمنهم من يقول انه بربري من هرغة ومصمود.

ولكن بعض المؤرخين يذكرون بان نسبة يعود الى ال البيت والا كيف دعى نفسه بالمهدي، فيقولون انه: ابن عبد الله ابن ادریس بن ادریس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله .

اما نسبته العربية فهي : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام.

ويؤكد هذا النسب ابن رشيف في شجرة انساب الخلفاء والامراء. وكذلك يؤكده ابن القطن وابن صاحب الصلاة مؤرخا الدولة الموحدية.

ويذكر انه في سنة ٥٠٠ هـ او ١١٠٦ غادر ابن تومرت وطنه في السوس في طلب العلم وعبر البحر الأندلسي ودرس في قرطبة حيناً ثم جاز من ثغر المرية الى المشرق ومر في طريقة المهديه عاصمة الدولة الفاطمية الاولى واخذ بها على الامام المارزي ثم توجه الى الاسكندرية ودرس بها على الامام ابي بكر الطروشي وقضى بعد ذلك فريضة الحج ثم سافر الى بغداد وهناك درس الفقه والاصول على يد ابي بكر الشاش الملقب بفخر الاسلام. وغيره

ويذكر بن خلدون بان ابن تومرت تأثر بتعاليم الا شعرية واخذ منهم واستحسن

طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها كما تأثر بتعاليم الغزالى والفقه الشيعي من خلال دراسته في المهدية ومصر.

وكما اتى محمد بن تومرت بغيته في الدراسة في المشرق اعتمد العودة الى المغرب، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى حتى غدا على قول ابن خلدون «بمراً متفرجاً من العلم وشهاباً وارياً من الدين». وفي اواخر سنة ٥١١هـ / ١١١٧ م ركب ابن تومرت سفينة متوجهة من الاسكندرية الى المغرب ولما وصل المهدية نزل في احد مساجدها وليس معه سوى ركوة ماء وعصى فتسامع به الناس واقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم وكان اذا شاهد منكراً من آلات الملاهي واواني الحمر بادر الى ازالتها وكسرها ثم اخذ يتتجول في المدن الغربية وهو رافع شعار (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقد حصل معه مشاكل كثيرة مع ولاة هذه المدن، حيث كلما حل في منطقة زرع فيها الاضطراب، وحمل ايضاً قيام فقهاء وعلماء هذه البلدان الى مناظرته ومناقشته حول اصول الدين وفروع الدين.

وقد خط في مدينة جایة تحت رعاية اصحابه من قبيلة صنهاجة وانضم اليه عدد من المؤيدين منهم عبد المؤمن بن علي بن علوی، الذي شاء القدر ان يكون فيما بعد اعظم اصحاب المهدى واعظم قاداته وخليفة تراثه وامام الموحدین من بعده.

وحل ابن تومرت في تلمسان ثم رحل مع أصحابه الى فارس ثم مكتسي ثم الى مراكش وهناك التقى بامير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين حيث دعى الى الفقهاء لمناقشة ابن تومرت ودار بينهم نقاش طويل حول القرآن والحديث وغيره، واظهر ابن تومرت في ذلك تفوقة على فقهاء المرابطين.

وقد احدث ابن تومرت رجة في صفوف اهل الفقه واضطراب في المجتمع مما حمل امير المؤمنين الى طرده واخراجه من مراكش بعدما سجنـه عدة ايام.

ثم اخذ يتقل من بلد الى اخر وخلال هذه المرحلة انظم اليه عدد كبير من الاتباع حتى وصل قرية أيجليز من بلاد هرغه وهي مواطن قومه وعشائره ونزل في مكان حصين. وهناك انهال عليه المصاومة من كل فج وكثير صحبه واتباعه.

ويذكر بان محمد بن تومرت لما استقر في موطنـه الاصلـي اخذ ينشر بين اصحابه

وتلاميذه نظرية المهدى الامام المتظر واورد احاديث كثيرة في هذا المجال وبعث اصحابه الى القبائل ليشرروا بها.

وينقل بعض المؤرخين بأنه في الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ (ديسمبر ١١٢١) قام ابن تومرت خطيباً في اصحابه واعلن اليهم انه الامام المهدى المتظر، وبذلك بايعه عدد من اصحابه وجمع من الناس ثم انهالت عليه القبائل البربرية للمبايعة.

ولكن يتسائل الكثير هل ان المؤرخين انصفوا في نقل الخبر وقالوا الحق في ادعاء ابن تومرت بأنه الامام المهدى المتظر. او ان ذلك جاء تشويهاً لهذه الحركة الاصلاحية من قبل اعدائها.

علمياً ان ابن تومرت درس علوم وفقه الشيعة ونظريه المهدى عند اهل البيت، في مصر والمهدية وبغداد، وقد وردت احاديث كثيرة حول المهدى ﷺ وان هناك علامات لظهوره منها شروق الشمس من الغرب وصيحة في السماء الى غير ذلك. فاذا كان ابن تومرت يعلم ذلك علم اليقين هو واصحابه وتلاميذه فكيف له ان يدعي بأنه الامام المهدى المتظر.

فأن تومرت المؤسس للحركة الاصلاحية الدينية العميقة كان في مواجهة مع المرابطين الذين كانوا يتبعون المذهب المالكي بينما كان ابن تومرت يدعو الى الاعتقاد بالامامة وحب ال البيت والاعتقاد بالمهدى المتظر. وكل هذه الامور كانت من معتقدات الدولة الفاطمية الشيعية التي كانت اندماك تسسيطر على شمال افريقيا.

لهذا يعتقد ان هناك تشويهاً لحركة ابن تومرت من قبل بعض فقهاء السلاطين ووعاظهم وكذلك بعض المؤرخين الذين يكتبون للسلطان.

كذلك لا يستبعد من ان ابن تومرت ادعى ذلك بشكل ما بعدما رأى نجاح دعوته وتکاثر اصحابه واتباعه وشعوره بقوة كبيرة مدوية. ولا كتنا بحاجة اليوم الى علم لدراسة سيرة وحياة هؤلاء المؤرخين والفقهاء وخاصة فقهاء السلاطين وحتى نطمئن الى ما ينقلونه او يفتون به وهو ما يدعى اليوم بعلم الرجال. هذا العلم بحاجة اليوم الى تطوير وتدقيق وشفافية وعدم الانحيازية وتحكيم العقل. كثير من المؤرخين يشيرون بأن ابن تومرت كان منذ الخطوات الاولى لدراسته في المشرق والمغرب كان يضم

شيئاً غريباً واطماعاً كبيرة دنيوية وسلطوية وانه بدأ بشعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم انتهى بأعلانه انه الامام المنتظر الموعود.

وقد سمي المهدى انصاره بالموحدين واعلن الحرب ضد المرابطين وبدأ الصراع بين الطرفين وكانت البداية سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م حيث بدأ الموحدين بغزوات عديدة على قواعد وحصون المرابطين في كل اطراف المغرب.

وكان من اكبر المعارك التي دارت بين الموحدين والمرابطين هي التي حاصرت قوات الموحدين مراكش العاصمة سنة ٥٢١ هـ وقيل سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م وفي هذه المعركة انهزم الموحدون وقتل منهم ٤٠ الفاً بل قيل انهم افروا جميعاً ولم يبقى منهم سوى فلول يسيرة.

من جهة اخرى فان المؤرخين يشيدون بمحمد بن تومرت ويعدلونه من اعظم الدعاة المتدينين واغرزهم علماً واشدهم دهاءً واقواهم نفساً واشدهم تأثيراً في النفوس.

وكان خطيباً مفوهاً فصيحاً بالعربية والبربرية معاً يستميل الجميع برأيه بيانه ووعظه وكان متمنكاً من علوم القرآن والسنة ومن اصول الفقه والدين وكان شديد التقشف والورع لم يرتدي سوى ثياب الصوف ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه واقبلت الدنيا عليه.

ويذكر بأن ابن خلدون قد دافع عن محمد بن تومرت ودعوهه وانه وصفه بالمهدى والمنقذ وقارنه بظهور الدولة الفاطمية كما رفض الطعن بالمهدى وانه قد اشار الى ان الدولة الفاطمية عند ظهورها قد لاقت من التشويه والاهانة من قبل خلفاءبني العباس في بغداد وان ذلك يتكرر مع ظهور ثورة المهدى في المغرب.

وهنا تنكشف لنا صورة واضحة لحركة ابن تومرت الاصلاحية فأن ابن خلدون يعتقد انه كان يدافع عن رجل ادعى انه المهدى بالمفهوم المنقذ والمصلح وانه من سلالة ال البيت وانه قام بواجبه الشرعي كما يقوم به شخص من سلال ال البيت ﷺ وليس المهدى المنتظر ﷺ الذي ذكرته الاحاديث الشريفة وان لظهوره علامات كونية.

ويذكر ان محمد ابن تومرت قد ترك كتابين او لهما يسمى (أعز مايطلب) وهو يظم

مبادئه ونظرياته في الأصول والإمامية وفي التوحيد والعلم. والثاني كتاب (الموطأ) او (موطأ الامام المهدى) وقد وضعه في العبادات والمعاملات والحدود على مثال موطن الامام مالك.

وبعد وفاة محمد بن تومرت خلفه عبد المؤمن على الذي كان اقرب واعز أصحابه واخذ هذا الرجل بجيش الجيوش ويقود المعارك والغزوات ضد المرابطين حتى أضعفها واستولى على مدن كثيرة وانتزعها من المرابطين وكان اخرها مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م عاصمة المرابطين حيث سقطت المدينة بيد الموحدين وبذلك سقطت دولة المرابطين وبدأت مرحلة جديدة ودولة اخرى عظيمة هي دولة الموحدين في المغرب.

اما عبد المؤمن بن علي فنذكر بعض المصادر بان نسبة يرجع إلى آل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت ادريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام وانه ولد في اخر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٥ م بموضع يعرف تاجرا على مقربة من مرسى هنين شمال تلمسان وكان والده قاضياً في زمانه. ونشأ عبد المؤمن محباً للقراءة والدرس يلازم المساجد لتلاوة القرآن وكان يعتزم الرحيل الى المشرق ليتابع الدرس ولكنه التقى مع محمد بن تومرت في بجاية سنة ٥١٢ هـ واقنعه ابن تومرت بالبقاء معه مع حملته ضد المنكر وانه سيعطيه الدروس التي يبغيها.

وقد شاء القدر ان يكون عبد المؤمن هو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقي. وتم على يد عبد المؤمن سقوط الدولة المرابطية وسيطر الموحدون على بلاد المغرب ثم توجهوا نحو الأندلس.

وقد جمع عبد المؤمن زعماء القبائل العربية والبربرية وقرر العبور الى الأندلس ونصرة اخوانهم المسلمين فزحفت الجيوش الموحدية وعبرت البحر الى الأندلس بقيادة عبد المؤمن وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ / نوفمبر ١١٦١ م.

وقبل العبور امر عبد المؤمن ببناء مدينة عصرية حصينة في جبل طارق وتم له ذلك وبعد انتهاء من بناء المدينة صل فيها وانهالت عليه امراء وولاة الأندلس وشعراءها وقضاتها وشارفها لاعادة البيعة والمديح والثناء. وبقوا في هذه المدينة عشرة ايام للتداول في امور الحكم ثم امر الخليفة بأنصرف الجميع كما بقى فيها حوالي شهرين

ثم قفل راجعاً إلى مراكش.

وكان عبد المؤمن يفكر في الاستعداد للجهاد في الأندلس وفي اثناء ذلك مرض ثم توفي سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ قبل ان ينفذ خططه ودفن في تينملل - إلى جانب استاده المهدي محمد بن تومرت.

وعادت الحياة في الأندلس في زمن الموحدين إلى سابق عهدها بعدها عاشت ثقافة صحراوية قاسية فرضها المرابطون على المجتمع الأندلسي. كما عادت روح الأدب الأندلسي والثقافة الأصيلة ونشط الفكر والعلم. وتهلل الأندلس بمظاهر الفرح وتزيينه بالتجديد وأضحت صورة جميلة للحضارة العربية والإسلامية. كما أخذ التشيع يتنفس الصعداء في الأندلس بعدها خنقته ثقافة الصحراء والتعصب.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل ان دولة الموحدين كانت دولة شيعية علوية جاءت على غرار الدولة الفاطمية بأعتبار ان مؤسسيها هم ينتسبون إلى سلالة آل البيت وانهم من احفاد الادارسة الحسينية العلوية كما انهم كانوا يدعون إلى الإمامة والاعتقاد بالمهدي المنتظر وحب آل البيت ؟

بعض المحللين يذكرون بأن حركة ابن تومرت ليس حركه مذهبية شيعية ضد مذهب اخر كما هو عند الدولة الفاطمية. وان الموحدين قد تركوا الباب مفتوحاً لكل الوان الفكر والفقه ولم يفرضوا التشيع، ويمكن ان نقول عنهم في اقصى شيء انهم يدعون الى حب آل البيت والاعتقاد بالأمامه والامام المتظر الامهدي (ع)، او بالمفهوم الحديث انهم معتدلين.

وهذه الحرية في الفكر والمذهب عاشتها الأندلس قبل حكم المرابطين وكان العالم والفقيه المنذرين سعيد البلوطى قاضي الجماعة في قرطبة ايام حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم كان شيئاً معتدلاً له كتب كثير في اراء المذهب الشيعي وفكرو وعلوم اهل البيت ولكنه اذا جلس للقضاء لا يحكم الا بمذهب مالك الذي كان المذهب الرسمي للدولة. وكان الموحدون قد سمحوا بالتطور في الفكر الفلسفى عندما ناقشوا بشكل دقيق في الأندلس الاختلافات العقلية والذهبية بين العقل والوحى والتوحيد مع الله وبني الأفلاطونيين الجدد والارسطيين.

ولقد احتمت الفلسفة في المغرب بظل هؤلاء الموحدين الذين افسحوا المجال أمام المناقشات الفلسفية. وفي ظلهم قام القرطبيان ابن رشد وابن ميمون بتطوير افكارهما وتنميتها وكان الرجالان من انصار المذهب الارسطي المتصوف وصاحب الفلسفة الكلامية.

كما قام الموحدون برعاية وحماية الادب فقد كان بلاط الخلفاء والحكام يغص بالشعراء المادحين لهذا ازدهرت في ظلهم العلوم والأداب وامتلات الأندلس بالقصور الرائعة والمباني الدينية الكبيرة.

هذا الانفتاح الذي سلكه الموحدون في الفكر والفلسفة والادب والعمaran كله نجده متشابه مع ما قامت به الدولة الفاطمية الشيعية في مصر وفي تونس من بناء صروح دينية عظيمة تعتبر من المعالم الحضارية لحد هذا اليوم مثل جامع الازهر الذي يدرس فيه مختلف العلوم والأداب لحد هذا اليوم كما انهم هم الذين قاموا بتأسيس مدينة القاهرة.

الآثار الباقية

كان عمران المساجد تحكم في تخطيط المدن وعمارتها وشوارعها حيث تعتبر المركز للمدينة ومنه توزع الأحياء وتتفرع الشوارع والساحات العامة كما هو ظاهر في أحياء دمشق وقرطبة حيث تحيط وتلف حول المساجد الجامع الكبير كما يعتبر المركز الروحي والثقافي للمدينة.

وقد صيغة المساجد المدن المفتوحة بصيغة الإسلام إذ ان المسجد الجامع يصبح بمثابة مركز المدينة وقلبها النابض. فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية الى ابواب المدينة وحول ساحاته تقام الأسواق والحمامات والفنادق والقيارات وفيه تعقد الاجتماعات السياسية وتتوزع الوجيهات الجيش وتدرس فيه العلوم الدينية وغير الدينية.

فليس من الغريب ان يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المدينة الإسلامية. وليس غريباً ان تتحول هذه المدن التي افتحتها العرب الى مدن إسلامية قلباً وقالباً. لاختلف عن المدن التي احتطها العرب الاكثرية ابنيتها القديمة الدالة على الحضارات الدراسية القديمة كالجسور الرومانية واقواس النصر والحمامات والأسوار والملاعب وغيرها.

وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام اساس العمران في المدن الإسلامية البناء او التي يرد طبعها بطابع الإسلام.

وكان للمسجد دوراً آخر مهم في المدينة الإسلامية فكانت الأسواق العاملة بالثياب والديباج والخوانق الراخنة بالعطور وأنواع الطيب والصاغة والعطارين تفاص في ساحة المسجد وساحاته المحيطة به وكانت تتفرع من هذه الساحات الطرق الرئيسية للمدينة ودورها وشوارعها التي تفضي الى ابواب الخارجية وهكذا صار المسجد نقطة تحول في دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الإسلامية.

المسجد الجامع بقرطبة : -

يعتبر جامع قرطبة من الوجهة الفنية اروع امثلة العمارة الاسلامية على السواء في العصر الوسيط ومن الوجهة العلمية اكبر جامعة اسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية ويعد اليها طلاب المسلمين والعمجم للدرس والتحصيل لذلك اشتهرت مدينة قرطبة لاشتمالها على المسجد الجامع.

ويقول المغربي نقلأً عن الرازي « الذي ليس في بلاد الاندلس والاسلام اكبر منه »

ويقول عنه الحميري انه الجامع « المشهور امره والشائع ذكره »

من اجل مصانع الدنيا اكبر مساحة . واحكام صنعته . وجمال هيئه واتقان بنيه . تهمم به الخلفاء المروانيين فزادوا فيه زيادة بعد زيادة وتميمياً اثر تميم حتى بلغ الغاية في الاتقان فصار يحار فيه الطرق ويعجز عن حسنة الوصف فليس في المسلمين مثله تنميقاً وطولأً وعرضأً .

ويقول عنه الادرسي في « نزهة المشتاق في اختلاف الاتفاق »

وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولأً وعرضأً .

وهكذا اصبح يضرب بهذا المسجد الجامع المثل بالعظمة والاتساع وفي كثرة الزخارف وبالغ المؤرخون العرب في وصفه وكتبو عن تاريخه ووصفه فصولاً طوال تعد من اهم المصادر عن هذا الاثر الخالد الجليل .

ولازال هذا المسجد قائماً حياً كما شيده المسلمون رغم ما حدث عليه بعض التغيير من قبل النصارى حيث حولوه الى كنيسة .

ولكن من هو مؤسس هذا المسجد الجامع العظيم ؟ يجمع المؤرخون العرب بأن حنش بن عبد الله الصنعاني وابا عبد الرحمن الحبلي التابعين قد توili تأسيسه بأيديهما وقوماً محاربه وقد احتفظ الامير عبد الرحمن الاوسط بهذا المحراب النفيس عند زيارته لبيت الصلاة فنقلة من موقعه القديم وركزه في مكانه من القبلة الجديدة وكذلك

احفظ المسجد الجامع في سائر زياداته باتجاه القبلة الذي حده حنش الصناعي رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح.

وجاء في كتاب «رسالة الشريفة في الاقطان الأندلسية» يقول (ورد في الاثر انها - القبلة التي ركزها حنش - روضة من رياض الجنة - وبقيت الى بنى امية - وبني بنيناً اخر لم يهدم المحراب ومشى على حمر خشب الى ان وقف في موضعه اليوم تبركاً به) ولما شاور الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر العلماء في تصحيح اتجاه القبلة نحو الشرق عندما شرع في النظر في زيادته الكبرى بالجامع كما فعل ابوه الناصر في قبلة جامع الزهراء، قال له الفقيه ابو ابراهيم «ياامير المؤمنين انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة من اجدادك الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الاندلس الى هذا الوقت متأسین بأول من نصبها من التابعين لموسى بن نصير وحسن الصناعي وامثالهم رحمهم الله تعالى وانها فضل من فضل الاتباع وهلك من هلك بالابداع فاخذ الخليفة برایة وقال نعم ماقلت وانها مذهبنا الاتباع».

ولكن من هو حنش عبد الله الصناعي الذي اسس مسجد قرطبة واعتبر محرابه الذي شيده روضة من رياض الجنة؟

يذكر المؤرخون انه احد طلاب الامام علي عليه السلام وانه شارك في معركة صفين وأخذ العلم والفقه منه وكان احد مستشارين موسى بن نصير ومن اعظم قواده الى جانب طارق بن زياد وعلي بن رباح اللخمي وغيرهم.

وكان حنش قائداً مرموقاً اكمل الفتح بعد عودة موسى بن نصير الى دمشق واستمر في تقدمه نحو الشمال وفتح مدينة بمبلونة Pamplona ومعه في ذلك التابعي ابن رباح في اواخر سنة ٩٥ هـ / ٧١٤.

وعندما تقدم المسلمين الى سرقسطة دخلوها دون قتال حيث طلب اهلها الامان فأستجاب لهم موسى واعطاهم الامان. ولم يكدر يستقر المسلمين في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله بانشاء مسجد المدينة وقدر هذا المسجد ان يتسع حتى اصبح مسجداً جاماً وظل قروناً متواالية منارة للإسلام. وبعد اخراج المسلمين من سرقسطة من قبل النصارى حول الى كنيسة وربما هو الكاتدرائية الحالية القديمة التي

قامت عليه والتي تسمى سيو Seo لان المصادر الاسبانية و العربية تذكر بان هذه الكنيسة كانت في الاصل مسجدا لل المسلمين.

وجاء في كتاب (- الأندلس - قرون من التقلبات والعطاءات، ج ٣) بان حنس بن عبد الله الصناعي كان بناء معماري وانه يبدو قد تولى امر سرقسطة حتى توفي فيها وقبره هناك معروف باسم مقبرة القبلة.

كما قام حنس بتأسيس مسجد البيره (غرناطة) وجعله معلم حضارياً للدين والعلم وبقي منيراً حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م وكان حنس كلما فتح مدينة اول عمل يقوم به هو تاسيس مسجدا فيها لل المسلمين ويجعل عليه اماماً وفقيها وادارة لتعليم الناس الدين و مختلف العلوم.

وكان حنس بن عبد الله الصناعي غزير الفقه والعلم وكيف الا وهو تلميذ الامام على العلية العلية ولا زالت هناك قلعة تقع جنوب شرق ماردة Merida تسمى حنس على بعد ٢٠ كم تقريبا منها.

ونعود الان قليلاً الى مسجد قرطبة حيث كان في الاصل كنيسة تعرف بشنت ينجنت St.vincent التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة بالقرب من السور الخنوب الذي يحيط بها قبالة باب القنطرة فشا طروا نصارى قرطبة في هذه الكنيسة اولاً واقاموا شطراهم مسجداً وبمرور الايام تكاثر عدد الوافدين والمصلين واصبح لا يتسع لاعدادهم الهائلة.

وعند دخول عبد الرحمن الداخل دعى زعماء النصارى في قرطبة لمقابلته وساومهم في بيع نصيبيهم من الكنيسة ليدخله في المسجد وتم الامر سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م في تراضي الجميع.

الجامع الكبير في الشبيلية -

اقام الموحدون هذا الجامع في القصبة بالإضافة الى جامع ابن عدبس، وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفي عدد بلاطاته فقد كان يشمل على احد عشر بلاطاً تتجه عمودياً على جدار القبلة وكان البلاط الاوسط اكثر البلاطات

اتساعاً وارتفاعاً وكان طول جدار القبلة يتراوح بين ٤٨ و ٥٠ متراً وكان لهذا المسجد مآذنة مربعة الشكل من الخارج ومستديرة من الداخل وكان يبلغ طول كل جانب من جوانبها الاربعة ٥،٨٨ م.

وأقيمت مآذنة الجامع من الأحجار التي تختلف من السور الروماني الذي تخرب عند الفتح الإسلامي للمدينة بدليل انه عشر بين احجار المآذنة المذكورة على حجر نقش عليه لاتينية مما يقطع بأن هذه الأحجار اخذت من اثار رومانية قديمة وكان صحن المسجد مغروساً بأشجار البرتقال لهذا يسمى الصحن اليوم **Patio de los naranjos** وكانت تتوسطه خصبة من الرخام تنبثق منها نافورة.

ولازلت المآذنة قائمة بزخارفها الإسلامية وعمارتها البهية رغم ماحدث عليها من بعض التغيير حيث اضيف الى اعلاها طابقاً ذو طراز مسيحي وعلقت عليه الاجراس.

وكان الموحدون يحملون مناخاً شيعياً طيباً فقد كان مؤسسهم محمد بن تومرت الذي ينتمي اصله الى الادارسة و اهل البيت، يدعوا الى الاصلاح وعقيدة المهدى المنتظر و مولاة اهل البيت و سار خليفتة عبد المؤمن بن علي على نفس المسلك.

وقد قاموا بحماية الاداب بأنواعها المختلفة وفي ظلهم امتثلت الأندلس بالقصور الرائعة والمباني الدينية كالمسجد الكبير بأشبيلية الأنف الذكر ومنارته الخالدة خير الدا **Giralda** او دوارة الهواء.

غرناطة : -

لما نزلت قبيلة مناد الصنهاجية الشيعية بزعامة زاوي بن زيري في البيرة حوالي ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م بعدما وزع سليمان المستعين المدن والشغور على القبائل البربرية رأوا انها لا تصلح بموقعها هذا للدفاع وبالتالي فقد اتفق رايهم على ان يبنوا في البسيط الواقع على مقربة من وادي شنيل المنحدر من جبل شلير والذي يسمى اليوم بجبل الشلح **Sierra nibada** مدينة جديدة حصينة ينزل بها وهكذا تم قيام مدينة غرناطة.

وفي زمن باديس بن حبوس زعيم منادي والذي يعتبر من اعظم زعماء البربر في

عصر الطوائف قد مصر مدينة غرناطة وغدت في عهده من اهم القواعد الأندلسية الجنوبيّة وانشأ قصبة غرناطة فوق انقاض قلعتها القديمة وسميت باسمها القديم القلعة الحمراء وهو الاسم الذي خلد على العصور وغدا فيما بعد علماً على حراء غرناطة.

وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه وإنشاء سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة.

كما يعود الفضل الى باديس بن حبوس في انشاء قلعة ملقا الحصينة والمنيعة والتي لازالت اثارها قائمة لحد هذا اليوم وهذا فأن غرناطة بأسوارها وقلعتها وقصرها هي من تاسيس ملول البربر الشيعة منبني مناد الصنهاجية.

اما بني الاحمر فقد جاءوا بعد ذلك وبنوا قصورهم ووسعواها وجعلوها اية من اياته الفن المعماري الاسلامي الذي لا يمثيل له في العالم الاسلامي وسنأتي على ذكرها.

وذكر الدكتور عبد الله عنان بأن ضمن توزيع القبائل الإسلامية على مدن وثغور الأندلس بعد الفتح مباشرة كان العراقيون قد نزلوا البيرية (غرناطة) والمعروف ان العراقيين كانوا غالبيتهم من شيعة الإمام علي عليه السلام وبذلك فان بداية التشيع قد زرع في غرناطة في بداية الفتح الإسلامي.

وتعتبر قصور الحمراء في غرناطة قمة الابداع المعماري ونهايته في اسبانيا بل العالم الاسلامي اجمع.

ولكن عندما نشاهد الحمراء من الخارج نفكر في الحرب والقتال والدفاع نتيجة لمناظر البراج والابواب والاسوار المحسنة، غير اننا عندما ندخل داخل العمارة تتغير الامور حيث يكشف الجمال عن روحه ورونقه، والذوق الرفيع عن هويته والابهه والرخاء والرفاه الذي كان يعيشه امراء غرناطة.

لقد عاشت هذه القصور السلطانية اكثر من سبعة قرون في تسابق مع الزمان في عمارتها وجمالها، حيث نشعر اننا امام ابداع فني انتجته عصرية ذلك الزمن. واليوم يفد غرناطة ملايين السواح للتمتع بهذا الارث والجمال المميز الذي انتجته ايدي حضارية كانت سيدة العالم. وكانت هذه القصور صفحة مشرقة ودليل على وجود حضارة انسانية مزدهرة امدت العالم يومذاك بكل صنوف المعرفة.

والحضارة الأندلسية لها خصوصية تختلف عن المشرقية والأوربية. وكما يقول الدكتور مؤنس

(انها حضارة عربية اسلامية اوربية) ويقصد في ذلك هو اختلاط المسلمين
بالياسبان الاوربيين

من ناحية طرز العمارة والتمدن والمصاهرة.

والعمارة الاسلامية في الأندلس تختلف فيما بينها تبعاً لفترات الزمنية والتغيرات السياسية. فعمارة الامارة تختلف عن عمارة الخلافة، وهذا يختلف عن عمارة الطوائف، وعمارة المرابطين تختلف عن عمارة الموحدين. ولكن الجميع يشتراك بنفس الروح ونفس التقاليد، وكذلك في الفلسفة الجمالية. وقصور غرناطة اليوم أصبحت غرة في جين الدهر واسبانيا حيث يستلهم منها الفنانون والمعماريون افكارهم وخيالاتهم ويعترفون منها اروع العناصر المعمارية لتزودهم

اكثر حساً وشفافية ورهافة بذلك الجمال الخالد الذي ظهر مع العقيدة الاسلامية الخالدة. وهذا الخلود دفع ملايين البشر من السواح وعشاق العمارة والفن للتمتع بهذا الارث الانساني العظيم. حيث تتفجر من هذا الصرح المعماري بنباع من المجد والسمو الحكيم ووابل من المتعة والفضيلة الانسانية.

عندما دخل العرب شبة الجزيرة وجدوا حضارة قديمة قائمة تعود الى الاقوام السابقة من ايبيريين وفينيقيين وثلاثوس وروماني وغيرهم، وقد رأوا مدنًا قائمة وعاصمة، فلم يهدمو اشيائنا ولم يغيروا من معالمها ولا اسمائها، بل عملوا على تعميיתה وزيازدة عمراتها ، ولكنهم ذهبوا الى الريف واستثمروه خير استثمار وشيدوا المدن والقرى والخصون والقلاء، وبالتالي فقد حولوا شبة الجزيرة الى ارقي بلد في اوروبا.

وقد انشوا مئات المدن والقرى واحتضنت هذه العمران باسمائها لحد هذا اليوم، كما ان الاختلاط والتزاوج الذي حدث بين المسلمين والنصارى انعكس على الثقافة الاجتماعية ومنها مفردات اللغة، فاصبحت كثير من الكلمات مركبة من جزئين احدهما من اصل عربي والاخر لاتيني مثل، مجريط (مدريد) – Magerit – حيث تتكون من مقطعين الاول مجرى العربي والآخر ايطي اللاتيني - ويعنى الكثير - ومثل

قصر آش - Caceres - وادي لب - اي الذئب - Guadalupe، وغيرها.

وكانت الثقافة العربية هي المتفوقة والغالبة على سكان اهل الجزيرة حتى ان الاقليات التي كانت تحت الحكم الاسلامي مثل النصارى كانوا قد تعلموا اللغة العربية وراوا انها اصلاح للتعبير من لغتهم الالاتينية. كما ان قسم من النصارى الذين درسوا في الجامعات الاندلسية او الذين انتقلوا الى المناطق الشمالية قد نقلوا معهم الثقافة العربية ومنها الاسماء العربية حيث اطلقوها على بعض القرى والمدن المسيحية الشمالية، والتي لم يكن التواجد العربي فيها الا قليلا.

مثل، قرية نصر Villa nazar في محافظة سمورة Zamora وقرية سلامة Villacelama

في محافظة ليون Leon ومحافظة بلد الوليد Villadolid. وهذه الاسماء مركبة من مقطع عربي وآخر لاتيني. وتعني Villa البلدة او المدينة.

وكان المستعربون - Muzarabe - من النصارى الذين يعيشون تحت ظل الحكم الاسلامي والمدجنون Almudejir - الذين كانوا يعيشون تحت حكم السلطات النصرانية، قد لعبوا دورا كبيرا في تاريخ الاندلس، حيث شكلت اهاتان الطائفتان حلقة وصل في نقل الثقافة والمؤثرات الحضارية من فريق الى آخر، وكانت المؤثرات العربية اشد كثافة واعمق من اسبانيا النصرانية منها في اسبانيا المسلمة، اذ كانت الحضارة الاندلسية ارقى واكثر ازدهارا في اروبا اجمع.

وعندما سقطت الاندلس بيد النصارى سنة ١٤٩٢ م وعلى اثرها قامت ثورات عديدة من قبل اهل الاندلس ضد السلطات النصرانية خاصة في منطقة البشرات في غرناطة، عمدت السلطات النصرانية الى نقل اهل غرناطة و كثير من اهل المدن الاندلسية الى المناطق الشمالية وتفرقهم على المدن وذلك لاضعاف قوتهم وتضييع هويتهم ولغتهم وسط المجتمعات النصرانية.

وكان هؤلاء الاندلسيون قد حملوا معهم تقاليدهم وثقافتهم الى المناطق الجديدة التي استقروا بها، خاصة في مجال الزراعة والعمارة، ولذلك نرى الكثير من طرز المدجنين منتشر في العمارة الدينية والمدنية في مدن ليون وسلمونة وبلد الوليد وغيرها.

وكان الفنون الرفيعة والحياة المترفة بين النصارى كانت تقوم على تراث المسلمين الأندلسي، وكان المعماري المسلم هو المفضل والمقدم في تشيد المباني الدينية والمدنية، وكان يطلق عليه اسم - العريف - Alarif - ولا زالت هذه الكلمة مستخدمة في المجتمع الإسباني، وكان العريف يشرف على تصميم وتشييد الابراج والكنائس والمصلات وتزيينها بالزخارف الشرقية الطراز.

كما هو ماثل في كنائس مدينة ترووال Teruel والتي سميت اليوم مدينة المدجنين (العرب) - حيث أصبحت تحت رعاية منظمة اليونسكو العالمية el Teruel .mudejar

كما اشرف العريف على بناء القصور الملكية مثل قصر اشبيلية الفخم الذي امر بتشييده الملك بدرالاول سنة ١٣٦٤ م.

وهذه امثلة بسيطة من آلاف الامثلة التي ذكرها المؤرخون العرب والاجانب، ولو سمحت لنا الظروف في تدوينها لاحتاجنا عشرات الكتب. وخلال رحلتي في البحث والتنقيب المستمر عن العمارة الاسلامية في اسبانيا، وجدت عشرات الاسماء والواقع الاثرية الاسلامية منتشرة في كل شبة الجزيرة، وبعضها قد حرفت اسمائها، ولكن بعض المنصفين من المؤرخين الاسبان والاجانب قد ذكروا اصلها ومعناها.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدا بعض المؤرخين الاسبان في محاولة لدراسة الاسماء العربية

في اللغة الاسبانية وهم : خوسيه انتونيو كوندي ١٧٦٥ - ١٨٢٠ ، وفرانسيسكو كوديرا ١٨٣٦ - ١٩١٧ ، وادواردو سافيدرا ١٨٢٩ - ١٨٩٨ ، و فرانسيسكو سيمونيت ١٨٢٩ - ١٨٩٧ .

وقد نشر هؤلاء معاجم باللاتيني والاسباني والعربي، وكانت معظم البحوث هي معاجم لترجم علماء الاندلس، وقد تقدمت هذه الدراسات والمواضيع بفضل عدد من اللغويين المتخصصين حول القواعد الصوتية والصرفية التي حكمت انتقال الالفاظ العربية الى الاسبانية.

ويضاف اليهم كوكبة اخرى من العلماء المستشرين البارزين منهم : ميغيل آسين بلايثيو وهو اول من قدم دراسة واسعة وحديثة حول اسماء الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية، وصدر كتابه سنة ١٩٤٤ بعنوان - دراسة للاعلام الجغرافية العربية في اسبانيا - *Contribucion a la toponimia arabe de espana* - وقد جمع في هذا الكتاب نحو الف وخمسين موضع ارجعها لاصولها العربية والحق بالكتاب قائمة بنحو اربعمائة وخمسين علما رجح انها من اصول عربية .

والعالم المستشرق الاسپاني الآخر هو L.de Eguilaz y Yanguaz حيث صدر له كتاب بعنوان - شرح مفردات الكلمات الاسبانية ذات الاصول الشرقية - *Glosario - de las palabras espanolas de origin oriente*

كم صدر كتاب آخر للعالم المؤرخ الياس تيريس بعنوان - *Materiales para el estudio de la toponimo hispno arabe* - سنة ١٩٨٦ - مدرید .

وهكذا صدر عدد كبير من الكتب التي تبحث في تاريخ اسبانيا المسلمة واصول الكلمات الاسبانية في اللغة العربية، ولم يختصر ذلك على المؤرخين الاسبان بل ان بعض الاجانب كتبوا عن ذلك مثل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال.

اما الاستاذ الدكتور محمود علي مكي فيعد كتابه - مدخل للدراسة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية في الاسبانية - في مقدمة الكتب المعتبرة، ونأمل ان توسع هذه الدراسات لتكون رصيدا ثقافيا آخر يضاف الى ما قدمه السابقون.

وعند بحثي ودراستي لمنطقة اрагون وجدت ان هناك مئات القرى والمدن التي تحمل اسماء عربية او ببرية مثل مدينة بنی رزين *Albarracin* وكانت تدعى هذه المنطقة - السهلة -

وبنور زين قبيلة ببرية استقرت في هذه المنطقة واسست المدينة التي تحمل اسمهم، والتي تقع شرق مدينة تروال. ومدينة فرااغة *Fraga* شمال شرق سرقسطة ومدينة Mequinez مكنسة

وزيدين *Zaidin* والمظفر *Almudafar* ، وتقع هذه المدن الاخيرة في الشمال قرب محافظة ويشقة *Huesca* ، ومدينة اوربا *Orba* في نافارا حيث يعتقد انها تعود الى قبيلة

اوربة البربرية، وغيرها من المدن والتي اشرنا اليها سابقا في موضوع مناطق استقرار البربر.

وكانـتـ المناـطـقـ الشـهـالـيـةـ منـ شـبـةـ الجـزـيرـةـ قدـ استـقـرـتـ فـيـهاـ مـعـظـمـ القـبـائـلـ الـبـرـبـرـيةـ بـعـدـماـ اـخـذـ العـرـبـ المـدـنـ الـمـهـمـةـ وـ الـأـرـاضـيـ السـهـلـةـ وـ الـخـصـبـةـ وـ تـرـكـواـ الـهـضـابـ وـ الـجـبـالـ إـلـىـ الـبـرـبـرـ،ـ ماـ

اثـارـةـ الفتـنـ وـ الـخـصـومـاتـ وـ الـكـراـهـيـةـ بـيـنـ الـعـرـبـ وـ الـبـرـبـرـ.ـ وـ كـانـ فـيـ مـقـدـمـةـ منـ اـسـتـقـرـ

فـيـ هـذـهـ الـمـاـنـاطـقـ الـقـائـدـ الـبـرـبـريـ مـنـوـسـةـ حـيـثـ عـيـنـ وـالـيـاـ عـلـىـ الـمـاـنـاطـقـ الشـهـالـيـةـ منـ جـبـالـ

الـبـرـانـسـ اوـ الـبـرـانـيـةـ **pirineos** شـرقـاـ إـلـىـ الـمـحـيـطـ الـأـطـلـسـيـ غـربـاـ.

وـمـنـ الـمـدـنـ الـتـيـ اـسـسـهـاـ الـعـرـبـ مجـرـيـطـ -ـ مـدـرـيـدـ الـعـاصـمـةـ الـحـالـيـةـ -ـ فـيـ زـمـنـ الـامـيرـ

مـحـمـدـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٨٥٥ـ مـ،ـ وـيـذـكـرـ الـمـؤـرـخـونـ الـإـسـبـانـ بـاـنـ هـنـاكـ -ـ ٥٣ـ -ـ قـرـيـةـ وـمـدـيـنـةـ

تـحـيـطـ بـمـدـرـيـدـ يـطـغـيـ عـلـيـهـ طـرـازـ الـمـدـجـنـينـ (ـالـعـرـبـ)ـ كـمـاـ يـضـافـ إـلـيـهـ -ـ ٦٤ـ -ـ مـوـقـعـاـ

أـثـرـيـاـ قـدـيـمـاـ مـعـظـمـهـاـ تـعـودـ إـلـىـ الـمـسـلـمـينـ.ـ وـ مـنـ الـخـصـونـ وـ الـمـدـنـ الـتـيـ اـسـسـهـاـ الـعـرـبـ

وـالـتـابـعـةـ إـلـىـ مـدـرـيـدـ هـيـ :ـ قـلـعـةـ عـبـدـ السـلـامـ (ـقـلـعـةـ هـيـنـارـسـ الـحـالـيـةـ)ـ،ـ وـ طـلـمـنـكـةـ،ـ

وـبـوـيـرـاـغـوـ،ـ وـ بـيـافـانـكـاـ،ـ وـ قـلـعـةـ الـحـلـفـاءـ وـغـيرـهـاـ.

وـقـدـ ذـكـرـنـاـ ذـلـكـ فـيـ كـتـابـيـ -ـ مجـرـيـطـ -ـ وـ فـنـ الـمـدـجـنـينـ فـيـ قـرـىـ وـمـدـنـ مـحـافـظـةـ مـدـرـيـدـ -ـ

وـمـنـ الـمـدـنـ الـأـخـرـىـ الـتـيـ اـسـسـهـاـ الـعـرـبـ وـادـيـ الـحـجـارـةـ **Guadalajara** وـتـبـعـدـ ٥٠ـ

-ـ كـمـشـرـقـ مـدـرـيـدـ وـفـيـهـاـ -ـ ٣٠ـ -ـ مـوـقـعـاـ أـثـرـيـاـ وـعـشـرـاتـ الـمـدـنـ وـالـقـرـىـ الـقـدـيمـةـ مـعـظـمـهـاـ

تـعـودـ إـلـىـ صـنـاعـةـ الـمـسـلـمـينـ مـنـهـاـ خـادـرـاـكـيـ،ـ وـ زـفـرـاـ،ـ وـ مـوـلـيـنـاـ دـيـ اـرـاغـونـ،ـ وـ بـرـهـوـيـغاـ

وـغـيرـهـاـ.

فيـ تـاسـيـسـهـاـ إـلـىـ قـبـيـلـةـ تـرـوـالـ الـبـرـبـرـيـةـ،ـ وـالـيـوـمـ تـعـتـبـرـ هـذـهـ الـمـدـنـ اـجـمـلـ الـعـمـارـةـ

الـأـسـلـامـيـةـ الـمـدـجـنـيـةـ فـيـ إـسـبـانـيـاـ،ـ وـهـذـاـ وـضـعـتـ تـحـتـ رـعـاـيـةـ وـمـسـؤـلـيـةـ مـنـظـمـةـ الـيـونـسـكـوـ

الـتـابـعـةـ إـلـىـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدةـ.

وـقـلـعـةـ رـبـاحـ **Calatrava** ،ـ وـكـانـتـ بـلـدـةـ صـغـيرـةـ تـقـعـ عـلـىـ الطـرـيقـ الـعـامـ بـيـنـ طـلـيـطـةـ

وقرطبة وقرب المدينة الملكية الحالية، وكانت ترابط فيها قوة عسكرية كبيرة ضاربة مهمتها هو مراقبة المنطقة والتحرك على اي ثورة او تمرد ضد الخلافة الاموية في قرطبة والقضاء عليه. ورباح هو علي بن رباح اللخمي احد قواد موسى بن نصير ومن التابعين.

وهناك مدن اخرى كثيرة اسسها المسلمون في شبه الجزيرة ذكرها عدد من المؤرخون العرب الذين اجادوا وافقوا في ذلك كما ذكرت منها بشكل متواضع في سلسلة كتبی عن العمارة الاسلامية في اسبانيا، لهذا لا حاجة لذكرها مرة اخرى.

واما المدن القديمة التي تعود الى العهد الايبيري والفينيقي والرومانی فهي كثيرة جدا، وقد اطلعت في الفترة الاخيرة على كتاب - تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية - ١٩٩٨ - للمؤلف جان مازيل، حيث يشرح عن الرحلات البرية والبحرية التي قام بها الفينيقيون منذ حوالي اربعة آلاف سنة، واتهم سيطروا على البحر المتوسط قلب العالم القديم واسسوا لهم مراكز ومرافق ومدننا في كل بقعة وموقع يحطون فيه، كما تحدث عن الأندلس والآثار الفينيقية ومدنهم ومرافقهم وحروفهم وفنونهم وغيرها. وقد انشأوا مدننا كانت من ازهر مدن العالم القديم، ومنها جادر Gadir و مالاكا Malaka ويرجع تاریخهما الى حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد. فلفظ - جادر - مشتق من القدرة او من الجدار، ثم جاء العرب واطلقوا على المدينة اسم قادر

وهي بالاسبانية اليوم Gadir. اما مالاكا فاسمها مشتق من لفظ الملك واطلق عليها العرب اسم مالقة واحينا تكتب ملقا .

والمعروف ان الفينيقيين شعب سامي وان لغتهم تتسمى الى نفس المجموعة اللغوية التي تتسب اليها العربية. وقد استمرت دولة الفينيقيين وحضارتهم في اسبانيا الى سنة ٢٠٢ ق. م ثم اندثرت. وفي القرن الاول الميلادي سيطر الرومان على شبه الجزيرة الايبيرية واصبغو البلاد بالصبغة الرومانية وفرضوا لغتهم اللاتينية على الناس.

وفي اواخر القرن الرابع الميلادي بدأت الامبراطورية الرومانية بالانحلال والزوال فظهرت القبائل الجermanية و اخذت تغزو الممتلكات الرومانية وتسيطر عليها، ومنهم الغوط الذين سيطروا على اسبانيا سنة ٤٠٩ م. ولم يضيف الغوط شيئا الى عمارة الرومان بل بدا التدهور والانحطاط يدب في كل المدن الرومانية التي

انشؤوها حتى مجىء العرب سنة ٧١١ م.

وبالاضافة الى الاثار والصروح المادية والآثار اللغوية التي تركها المسلمون في اسبانيا نجد كذلك التقاليد والعادات الاسبانية في التعامل في الاسواق وفيما ينادي به البائعة على سلعهم حيث ترجع الى اصول اندلسية. وكذلك في التقاليد الملكية مثلا

.Dios le guarda que

وفي مظاهر التحية والعناق وصفة الدعاية والنكتة وغيرها، وهذا ما اكده الباحث والمؤرخ الاسباني Menendez Pidal . كما اشتهر اهل مدينة ليبي الأندلسية اليوم Lepe بالفكاوه حيث ان اهلها يتجادلون ويتبادلون الاحاديث بينهم ممزوجة بالنواذر والنكات. لهذا فقد صدرت كتب فكاهية عديدة عن هذه المدينة منها - نواذر ليبي - chistes de Lepe - سنة ١٩٩٣ . وبالتالي فمن الخطأ القول بان اسبانيا النصرانية قد استطاعت ان تقضي باساليب القمع والتنصير على السلاله العربية الأندلسية حيث لا زالت تجري في عروقهم دماء اسلافهم مسلمي الأندلس.

ولهذا فيمكن القول بان الامة الأندلسية غالبيتها تنتمي في اصولها وجنورها ودمائها الى المشرق وحضاراته العريقة.

وخلال بحثي ودراستي للعمارة الاسلامية في الأندلس وجدت عشرات بل مئات الكنائس كانت في الاصل مساجد ثم حولت الى كنائس، و لا زالت قائمة بمظاهرها وثوبها المزركش الجميل وطرازها المعماري المميز مثل مدينة بويرتاغو Buitrago القرية من مدريد، حيث يشاهد في سقفها مكتوبا اسم الجلاللة بالخط الكوفي محاط بنجمة مثمنة الشكل وبلون شذري ، كما نجد نفس هذه الزخرفة ماثلة في المحراب تحيط به عدد من الصور الدينية.

وفي كنيسة تاوستي Tauste القرية من سرقسطة نشاهد على برجها زخرفة اسلامية تمثل خطاط كوفيا، وقد ذكر المؤرخون بعد دراستها بأنها تشير الى معتقد اسلامي وانه (لا اله الا الله محمد رسول الله) وكان هذا البرج في الاصل منارة المسجد، او ان البرج قد شيد في زمن النصارى على ايدي معماريين مسلمين فوضعوا تلك العبارة. وقد كتبت عن هذا الموضوع مصورة ومحققا بشكل واسع في مجلة السياحة الاسلامية التي

تصدر في لندن، العدد ٣٣ سنة ٢٠٠٨.

كما يشاهد في الكاتدرائية الكبيرة El Seo في سرقسطة كتابات عربية، ويدرك بانها كانت مسجداً. وفي طليطلة لازالت بعض المساجد ظاهرة مثل كنيسة سان رومان
San Roman

حيث نجد في داخلها كتابات عربية وطراز اسلامي ومحراب، اما مسجد باب المردم فلازال كما هو في عمارته القديمة وطرازه الاسلامي وحتى الواجهه مكتوب عليها بالخط العربي البسملة و المعاري الذي شيد المسجد، وفي الفترة الاخيرة شاهدت فيه تقبيلات وحفريات طالت كل مراfceه ومساحته وعلى عمق مترين في بعض الواقع، حتى اني خشيت من انهياره وسقوطه. و في تروال فقد وجدت في كنيسة سانتا ماريا Santa Maria كتابات عربية تزين سقفها يضاف الى انها من صناعة المدجنين.

هذه الامثل وغيرها نجدها منتشرة في المناطق الشمالية وبكثافة. اما الأندلس فهي لا تحتاج الى تحقيق وبحث فالشواهد المادية موجودة كنور الشمس مضيئة في كل مكان وهي غنية عن التعريف، وقد كتب عنها اهل العلم والمعرفة من العرب والاسبان والاجانب.

العرفاء

اما بالنسبة الى العرفاء Alarif (المعماريون المسلمين) فقد بقوا يشكلون الرقم الصعب و الاول في الاشراف على بناء المساجد والقصور و الكنائس حتى بعد احتلال النصارى لكل اسبانيا. واشتهر منهم في منطقة اрагون محمد رامي وكان من ابرز المعماريين في القرن الرابع عشر ويعد له الفضل في بناء كاتدرائية El Seo في سرقسطة، او بالاحرى تحويلها من مسجد ذو طراز اسلامي الى كنيسة ذات اسلوب مدجني، كما اشرف على بناء بلاط البابا لونا في مدينة داروكا Daroca. وقد وجد اسمه محفورا على برج كنيسة المراج في مدينة ثيربيرا.

وظهر في زمن الموحدين العريف احمد بن باسة - ١١٨٢ م - حيث اشرف على بناء مسجد القصبة الكبير في اشبيلية وعلى صومعته - المنارة - والتي تسمى اليوم بالخير الدا، وكانت هذه المنارة تشبه في طرازها مناراتين شقيقتين فيها وراء البحر هما منارة جامع الكتبية (او الكتبين) في مراكش، ومنارة حسان في مدينة الرباط. ويعتبر هذا الجامع من اجمل و اكبر المساجد في الأندلس بعد جامع قرطبة. كما اشرف هذا المعماري على بناء مدينة الموحدين في جبل طارق و عدد آخر من قصور الامراء، كما وردت اسماء اخرى من العرفاء الذين شاركوا احمد بن باسة في عمارة الموحدين و منهم : علي الغماري و ابي الليث الصفار و يعيش الملقي و عبد البر بن هارون.

اما بناء مسجد باب المردوم في طليطلة فيعود للعريفين موسى بن علي البناء وسعادة، وقد وجدا اسمهما محفورا في واجهة المسجد بالخط الكوفي، ولا زالت الكتابة ظاهرة وهي (بسم الله الرحمن الرحيم، اقام هذا المسجد احمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يد موسى بن علي البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعة وثلاث مائة) ٣٠٩ هجرية / ٩٩٩ م.

وفي مدينة وادي الحجارة بربز المعماري المسلم علي ابو ياتي Ali puyate حيث اشرف على بناء بلاط الامراء سنة ١٤٨٠ م مع عدد آخر من العرفاء المسلمين

وكذلك العريف النصراني خوان غواس Juan Guas ، ولازال هذا البناء يتلألأً بطرازه المدجني الجميل وزخرفته الاسلامية التي تطرز عدد من سقوفه وواجهاته.

اما مسجد قرطبة فقد اشتراك في بنائه خلال قرنين من الزمان عدد كبير من المعماريين والمزخرفين والنجارين والحدادين والخطاطين والمرشفيين وغيرهم، ولكن مع الاسف لم يذكر منهم الا القليل، ومنهم سعيد بن ابيوب و (٩٦٠ م) ومسرور ونصر (٨٥٥ م) وبدر وفتح وابن فتح وحاتم ورشيق واحمد بن بدر الدين وغيرهم، ويبدو ان اكثر الاسماء مختصرة على الالقاب حيث وجدت منقوشة على الجدان والابواب وتيجان الاعمدة . كما اشتراك في عمل الفسيفساء صناع ارسلهم ملك القدسية الى الخليفة عبد الرحمن الناصر. غير ان المتتبع الى سير تطور بناء المسجد خلال مائتين سنة يلاحظ ان المؤرخين العرب يركزون على ذكر الامراء والخلفاء الذين قاموا ببنائه و توسيعه.

كما ورد في المصادر العربية ذكر اسماء العرفاء الذين شاركوا في بناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هجرية / ٩٣٦ م في زمن الخليفة الناصر وهم : حسن بن جعفر الاسكندراني واخوه علي بن جعفر و عبد الله بن يونس و احمد اليوناني وفتح و افلح و شنيف و سعيد وغيرهم وقد وجدت اسمائهم محفورة على الاعمدة والتيجان والقواعد وهي ظاهرة لحد هذا اليوم.

وقد ورد ذكر هذه الاسماء في كتب المؤرخين العرب مثل المقربي وابن صاحب الصلاة و ابن الخطيب والادريسي وياقوت الحموي وغيرهم

مكتبة الاسكريال

انشأ الملك فيليب الثاني قصراً في منطقة الاسكريال يعتبر من اعظم الصرافل الملكية في اوروبا، وفي هذا القصر تقع المكتبة الملكية على الجهة اليمنى منه. وقد زرتها واطلعت على بعض المخطوطات العربية بترخيص من المسؤولين الذين يشرفون عليها، كما يوجد في صالتها الكبيرة نسخة من القرآن الكريم معروضاً في صندوق زجاجي ومحفوظ بالخط الكوفي المغربي المتعارف عليه. ويدرك انه يعود الى سلطان المغرب المنصور السعدي.

وعندما ادركت الحكومة الاسانية اهمية هذه المخطوطات الثقافية والعلمية والتاريخية دعت احد العلماء الشرقيين الذين يجمعون بين الثقافتين الغربية والشرقية وهو ميخائيل الغزيري اللبناني الاصل - Casiri - حيث وضع لها فهرسه الشهير - المكتبة العربية في الاسكريال - والذي يتكون من جزئين صدر الاول سنة ١٧٦٠ م والثاني سنة ١٧٧٠ م ، ويعد ذلك من المراجع المهمة لحد هذا اليوم والتي يستفيد منها الباحثون واهل العلم.

كما توجد مخطوطات اخرى عربية في المكتبة الوطنية العامة في مدريد وفي مكتبة دير ساكرومونتي في غرناطة. وايضاً توجد مخطوطات اندلسية اخرى تعود الى الموريسكيين الذين تنصروا واخذوا اسلامهم وقد استخدمو اللغة القشتالية ولكن بحروف عربية وتسمى هذه الكتابة (بالاخميادو) Aljamiado اي الاعجمية، غير انني سألت احد المثقفين المسلمين الاسпан

عن اصل ومعنى هذه اللغة، فذكر لي انها تعني - الجامعة - اي التي تجمع بين اللغتين الاسانية اللاتينية و العربية.

وكان الموريسكيون يدونون فيها الفقه واحكام الاسلام والقرآن والادعية وغيرها. وتوجد الان نماذج من هذه المخطوطات في المكتبة الوطنية في مدريد.

الفن الأندلسي

لو تأملنا الطراز الفني الأندلسي سواء كان من الناحية المعمارية او الزخرفية لوجدنا انه لا يختلف عن الطراز الفني القائم في بلاد المغرب، يضاف الى ذلك ان كثير من العناصر المعمارية انتقلت من بلاد الشام الى المغرب والأندلس، كشكل المآذن المربعة التي نراها في مسجد اشبيلية وقرطبة. ويدرك ان هذا النوع من العمارة جاء من بلاد الرافين من شكل الزقورات والابراج البابلية.

وايضا انتقل شكل قوس نعل الفرس الذي طوره الأندلسيون وحسنوه والذي نجده ظاهرا في قصر الحمراء، كما دخل الخط العربي الكوفي كعنصر زخرفي جميل يغطي القباب والحيطان بطبعه أندلسي مميز. ولم يكتفي الأندلسيون بنقل الطراز المشرقي وانما طوروه وابتدعوا عناصر فنية معمارية جديدة بحيث اصبح يطلق عليها الطراز الأندلسي، كالاقواس المقصصه والمقرنصة والمركبة والمتشابكة. كما ظهر نوع آخر من الاعمدة وهو العمود المزدوج اي المتكون من عمودين رشيقين او اكثروالمتمثل في قاعة الاسود في قصر الحمراء.

وانطلق اسلوب الزخرفة النباتية والحيوانية ذات الحفر العميق من قصر المستني الى الأندلس وظهر واضحا على العلب المصنوعة من مادة العاج وعلى جدران قصر الحمراء والاحواض الاندلسية، ومن الأندلس انتقلت هذه الى اوربا.

وقد بلغ فن العمارة والترف في الأندلس حد المغالات فاق ما بناه خلفاء اهل المشرق، ومنها ما قام به الخليفة الناصر في بناء مدينة الزهراء حيث كانت مبانيها افخر ما عرفه ذلك العصر وقد استغرق البناء فيها حوالي ١٥ سنة وبasherاف ابنه الحكم. وكذلك ما بناه بنو نصر في عمارة قصور الحمراء الذي يعد آية في الجمال والتحدي.

اما مسجد قرطبة الذي انشأه التابعي حنش بن عبد الله الصناعي ثم اكمله ووسعه عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٠ هجرية ٧٨٤ م، فقد ذكر بان العمل استغرق فيه قرنين من الزمان، فهو اكبر اثر تركه العرب في اسبانيا يحكي قصة امجاد وعظمة الهندسة

المعمارية الإسلامية.

وقد دخل الفن الإسلامي جميع مراافق الحياة ونشط بعد النهضة العمرانية كبناء القصور والمساجد والقباب والمآذن وزخرفتها بالعناصر المتنوعة من نباتية وهندسية والخط العربي، وكذلك زينت الأواني والملابس والسجاجيد حتى وصلت الزخرفة إلى قباقيب الحمامات.

وقد ولد الفن الإسلامي في المسجد بين احضان العقيدة الإسلامية، ورغم أن وضيفة المسجد هي العبادة إلا أنه يبقى المكان الذي تجلّى فيه معانٍ الفن الإسلامي وفلسفته المحكمة، وهذا نجد أن هذا الفن يزين المصحف الكريم والسجاجيد وأواني الوضوء والمصابيح التي تتلئ من سقوف المساجد والمنابر والمحاريب والمآذن والقباب وغيرها.

غير أن هذا التلامم لا يفسر بان الفن الإسلامي عامل مساعد في شرح تعاليم الدين الإسلامي كما هو عند بعض الاديان الأخرى وإنما دوره هنا يشير الى فلسفة الفن الجمالية النابعة من قوله تعالى :

(يابني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد)

ان مبدأ الجمال في الفن الإسلامي لا ينبع إلى زمان او مكان انه شكل مجرد بلا تغيير او تحويل انه امتداد بلا حدود ، وقد ذكر بعض المفسرين بان الظاهرة الجمالية للتكرار في الزخرفة الإسلامية تعني السعي وراء الله تعالى وداعية اليه لذلك كان وحدة الرقص العربي بغير بداية ولا نهاية، وقد فسر الدكتور زكي محمد حسن هذه الظاهرة بما يسميه - كراهية الفراغ - هذه الكراهية ظهرت واضحة وجليّة في اعمال الفنان المسلم خاصة في بلاد المغرب والأندلس.

ففي قصور الحمراء في غرناطة ان الفنان المسلم لم يترك شيئاً واحداً من البناء المعماري الا وزخرفه. وكانت عبارة - لغالب الا الله - وهي شعاربني نصر تغطي جدران العمارة متكررة باسلوب جذاب وصياغة طربة عذوبة.

وقد انفرد الفن الإسلامي من بين فنون العالم بالخط الزخرفي الذي استعمل في اوسع

نطاق وفي جميع المنتجات الفنية، حيث حل الخط بمعانٍ العقائدية محل الصور التي نراها في معابد الديانات الأخرى. وقد ادرك الفنان المسلم أهمية هذا الخط فجعلوا منه عنصراً تشكيلياً طيباً في الزخرفة، فابدعوا في تشكيلاته وتنويعاته، وبعض الأحيان جعلوا نهاياته تنتهي بالازهار أو الأوراق النباتية، فسموه بالخط المزهري والخط المورق، ثم ابتكروا عبارات وكلمات على شكل قباب أو مآذن أو حيوان.

وكان القرآن هو الميدان الاول الذي اهتم به الخطاطون حيث ذهبوا وزخرفوا عناوين السور ووضعوها داخل اطارات مزينة بانواع الاشكال النباتية وال الهندسية. كما كان المسجد اول العمارة الاسلامية و الميدان الثاني بعد القرآن الذي نال اهتمام المهندسين والفنانين حيث فاضت فيه ابداعاتهم و عبقرياتهم فاصبح بمثابة المتحف الذي يرى الزائر من خلاله جمال وروح الفن الاسلامي.

وقد ابدع هؤلاء الفنانون بان جعلوا المساجد تتجه الى السماء في قبابها و ما ذكرها العالية وكأنها في صلاة دائمة، فجأة راسية ضخمة عالية، وقد ظهر ذلك واضحا في اعمال المهندس التركي سنان الذي صمم جامع السلطان سليم سنة ١٥٥٠ م ، ومتناز هذه المساجد بجمالي قبابها المتعددة ومنائرها العالية المضلعة المشوقة والتي تنتهي بمخروط.

ورغم ذهاب اكثر من اربعة عشر قرنا على نشأت الفن الاسلامي الا انه لم يتغير بتغير العصور والأنظمة فقد ذهب الخلفاء والسلطانين والحكام وذهب صروحهم ومدنهم الخيالية التي بنوها، مثل ما حدث لمدينة الزهراء التي حرقها المرابطون وحولوها الى ركام بعدما كانت من اجمل مدن الدنيا. ولكن الفن الاسلامي بقى حي انيقا لا يهتز يزين المساجد والمصاحف والسجاجيد والاواني وغيرها. لهذا فان السر في ديمومة الفن الاسلامي وجماله هو انه يتتجاوز الافكار الوضعية والاشكال الظاهرية وانه لم ينحاز الى عصبة او قوم او حزب، وبالتالي فبقائه قائم مع وجود المساجد واماكن العبادة والفطرة الانسانية التي تهوى الى الحال والذلة والفضيلة.

وهناك نقطة مهمة يجب الانتباه إليها وهي أن القرآن الكريم أكد على التمتع بظاهر الزينة والجمال وإن احساس الإنسان بالجمال وإندفاعه نحوه أنها هو شعور فطري ينبع من احساس النفس وتوجهها نحو الكمال. فعندما ييارس الإنسان المظاهر الجمالية

من أناقة وملبس و زينة وعندما تتعكس هذه الامور على ذاته الباطنية وتفاعل معها لتكون صورة حية للحس والذوق الجميل فيصبح عندئذ هذا الحس سلوكاً و مواقف انسانية تبتعد عن الممارسات الشريرة والقبيحة.

وهذه هي فلسفة الفن الاسلامي الجمالية التي هي الابتعاد عن السلوك الخاطيء والشرير وتغليب الحس الجمالي والمحبة عليها.

وذكر الاستاذ عفيف البهنسى بان الفنان المسلم يسعى من وراء الرقص الهندسى الى التعبير عن النور من خلال الحركة الوميضة حيث جعلت عناصر الرقص من نجوم ثمانية وسداسية مع مضاعفاتها تعبراً عن مصدر النور. كما ذكر بان السعي وراء النور اي الجوهر هو احد اسباب وحدة الفن الاسلامي وخلوده.

(الله نور السماوات والارض)

وكان الرسول ﷺ (سراجاً منيراً) كما جعل القرآن (نوراً يهدي به)

ولهذا فان هذه المعاني القرآنية قد انعكست على اعمال الفنانين فعبروا عنها بالاشكال الهندسية والنباتية من نجوم وازهار جميلة وخطوط بلا نهاية ولا حدود بل انها سر مدية.

وكان الفنان المسلم اراد ان يحاكي الطبيعة بروحها وجوهرها ويبحث عن ماهيتها . ونتيجة لهذا الحس الاخلاقي جعل مقاييس الاشياء روحية وجداً، كما حاول تحرير الاشياء المادية وتجزأتها واحتالتها الى خطوط و سطوح و نقاط و لوان.

وهذا ما فعله و يفعله الفنان الاوربي الحديث حيث اخذ ينهج نفس المنهج الذي سار عليه الفنان المسلم الذي بدأ به قبل اكثر من عشرة قرون، امثال بيکاسو وماطيس وبراك وبول كلي وغيرهم، فقد اخذ هؤلاء بطريقة تفكيك عناصر الطبيع و تحويلها الى اشكال جديدة بحثاً عن المضمون او جوهر المادة.

والملاحظ في الفن الاسلامي هناك صفة ينفرد بها وهي ان -فن الانا- غير موجودة، حيث تخفي الصفات الخاصة للتذوب في الصفات العامة للفن . بينما نرى ان الفن الاوربي خاصية الفن الحديث انه -فن فنانين - فعند التأمل في اعمال دافنشي و رمبرانت

وبيكاسو نجد ان كل واحد منهم له خصوصية ومعاجلة في اعماله ينفرد بها عن غيره من الفنانين، ولهذا فمن السهل معرفة اعمال دالي و فانكوخ وبيكاسو وغيرهم.

فالفن الاسلامي فن عام غير شخصي بمعنى انه فن الامة الاسلامية، وقد اكد الكثير من المؤرخين بأنه يكاد يتعدى القول بأن هناك في الفن الاسلامي اتجاهها عربيا او فارسيا او تركيا او هنديا او غيره.

فالعلاقات المعمارية والزخرفية المشابهة بين مسجد في سمرقند وآخر في بلاد الشام وبين صحيفة خطت بالخط الكوفي في العراق وآخر في بلاد المغرب وبين قوس مدبدب في بلاد فارس وآخر في مصر، كل هذه العلاقات المشابهة تحدو بنا الى مفهوم واحد وهو وحدة الفن الاسلامي رغم تباعد الزمان والمكان منسجما مع وحدة العقيدة الاسلامية.

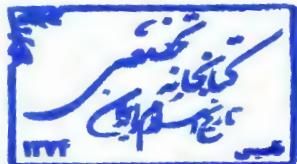
وكان الفنان المسلم في اي بلد من العالم الاسلامي لا يعمل ليعبر عن الطبيعة او الحقيقة او عن شعوره تعبيرا خاصا، وانما نراه في كثير من الاحيان يتبع الطرق القديمة ويسير على الاساليب الفنية الموروثة. فالفنان الماهر يومذاك هو ذلك الذي يفوق غيره في عملية الاتقان في الزخرفة والرسم. لهذا فان الفن الاسلامي هيمن اكثر من عشرة قرون واتسع باتساع الحضارة الاسلامية، رغم اختلاف القوميات واللغات والتقاليد والعادات محققا هدفه الذي يسعى اليه وهو الوحد في الاسلوب مع الوحد في العقيدة.

ولهذا فان العمارة الاندلسية ليست وليدة الطبيعة الاندلسية وحدتها ساعد على نشأتها وتطورها الثقافية المشرقة والحياة المترفة اللاهية والتمازج الذي تم على الارض بين شرقي فاتن نحيل وبين غربي اشقر من اطراف اوروبا، حيث امتزجت الالوان والثقافات وانتجت حضارة من ارقى حضارات اوروبا في ذلك الوقت الا وهي الأندلس التي لازالت تعيش في جذور ودماء اهلها.

المصادر

- ١ - نفح الطيب / المقرى - ج ٢ - ١٩٨٨ / بيروت .
- ٢ - الروض المعطار / الحميري / تحقيق الدكتور احسان عباس - بيروت - ١٩٨٤ .
- ٣ - نرفة المشتاق في اختراق الآفاق / الاذرسي / القاهرة - ١٩٩٤ .
- ٤ - جمهرة انساب العرب / ابن حزم / طبعة ليفي بروفيسال - القاهرة - ١٩٤٨ .
- ٥ - تاريخ افتتاح الأندلس / ابن القوطية / نشره وحققه عبد الله انيس الطباع - بيروت - ١٩٥٨ .
- ٦ - فجر الأندلس / الدكتور حسين مؤنس - القاهرة - ١٩٥٩ .
- ٧ - الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس / د- صالح محمد فياض ابو دياك / الاردن - ١٩٨٨ .
- ٨ - الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس / د- عبد الواحد ذنون طه / بغداد - ١٩٨٢ .
- ٩ - دولة الاسلام في الأندلس / محمد عبد الله عنان / العصر الاول - ١ - ٢ العصر الثالث - ١ / القاهرة - ١٩٩٧ .
- ١٠ - الآثار الباقية في اسيانية والبرتغال / محمد عبد الله عنان / القاهرة - ١٩٩٧ .
- ١١ - الأندلس الذهابة / ضياء باشا / تعریف عبد الرحمن ارشيدات - عمان - ١٩٨٩ .
- ١٢ - القطوف اليانعة / عبد الله انيس الطباع / بيروت - ١٩٦٤ .
- ١٣ - تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس / د- السيد عبد العزيز سالم / الاسكندرية - ١٩٦١ .

- ١٤ - الأندلس / قرون من التقلبات والعطاءات / الحضارة والعمارة والفنون / مجموعة من المؤلفين / مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة / الرياض - ١٩٩٦.
- ١٥ - المسلمين في الأندلس / رينهت دوزي / ترجمة د- حسن حبشي - ج ١ - مصر ١٩٩٨.
- ١٦ - الدولة الفاطمية في مصر / د- ايمن فؤاد سيد / القاهرة - ١٩٩٢.
- ١٧ - الفاطميون / هايتز هالم / تعریف سید الدین القصیر - دمشق - ١٩٩٩.
- ١٨ - الادب الأندلسي / ماريا خيسوس روبيرا متى / ترجمة اشرف علي دعدور - دمشق - ١٩٩٩.
- ١٩ - ابن عبد ربہ - مليح الأندلس - / احمد بسج / بيروت - ١٩٩٤.
- ٢٠ - تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية / جان مازيل / ترجمة ربا الخشن - اللاذقية - ١٩٩٨.
- ٢١ - مدخل لدراسة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية في الاسبانية / د- محمود علي مكي / منشورات المعهد المصري - مدرید - ١٩٩٦.
- ٢٢ - مسح ميداني و زيارات متكررة لعدد من الناطق الاثرية الاسلامية القديمة في اسبانيا و توثيقها بالصور الفوتوغرافية.



ملحق صور



من معلمات مدريد الجميلة



قصور الحمراء



قصر الحضرية
سر قسطة



منظر عام لمدينة طليطلة



القطرة العربية ، طليطلة



الجسر العربي القديم / وادي الحجارة



ال بلاط الملكي، وقد شيد فوق القصر العربي القديم / مدريد



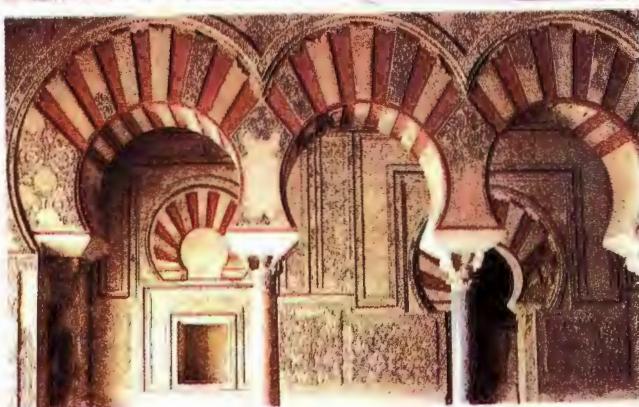
آثار السور العربي

مدريد



زخارف هندسية مع
كتابات عربية منفذة
على قطع خزفية -
١٦١٢ / غرناطة

قصر قصبة
ملقا



مدينة الذهراء



مسجد باب المردوم / طليطلة



باب المردوم من اليمين وباب القسم من اليسار وهما من الآثار الإسلامية الباقية / طليطلة



كاتدرائية طليطلة

هذه صورة لـ
داخل الكاتدرائية





Alcazaba de Málaga, sistema defensivo

القصبة / ملقا



قصر اشبيلية



بنيات عربية القديمة / قرينة





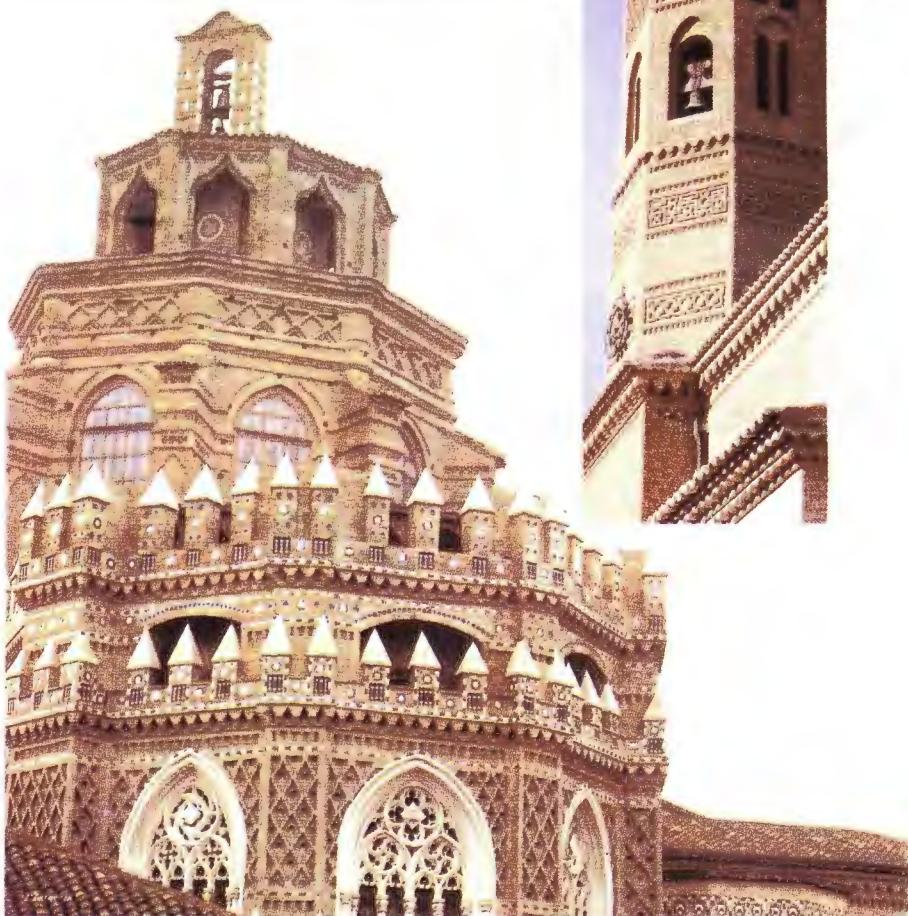
مدينة بني رزرين



مدينة تروال

كنيسة تاروتني
- مفرقة -

كاتدرائية لا سيبو
- كانت مسجداً
- سرقة





Sistema defensivo /Gormaz (soria)

قلعة سرية



conventual de mérida

دير مدينة لاردة



Alcázar, Tarifa (Cádiz)

القصبة / قاديش



torres albaranas /trujillo (cáceres)

قلعة قصر آش

مدينة تروال



قلعة كنثرة / طليطلة





كنيسة لاتا في قرنيه زارة





مدينة سالم



القلعة / مدينة سالم



باب طليطة / المدينة الملكية





خور كبر اشقر - البسيط



اثار مدينة طلبرية



مدينة داروكا



الاسكريبل



المشرف / البسيط



مدينة انتيكة



ثرا (زفرا) / وادي الحجارة



ثوريتا (زوريتا) / وادي الحجارة



المسلمة / طليطلة



مويا / قوينقة



قصبة مولينا دي اراغون

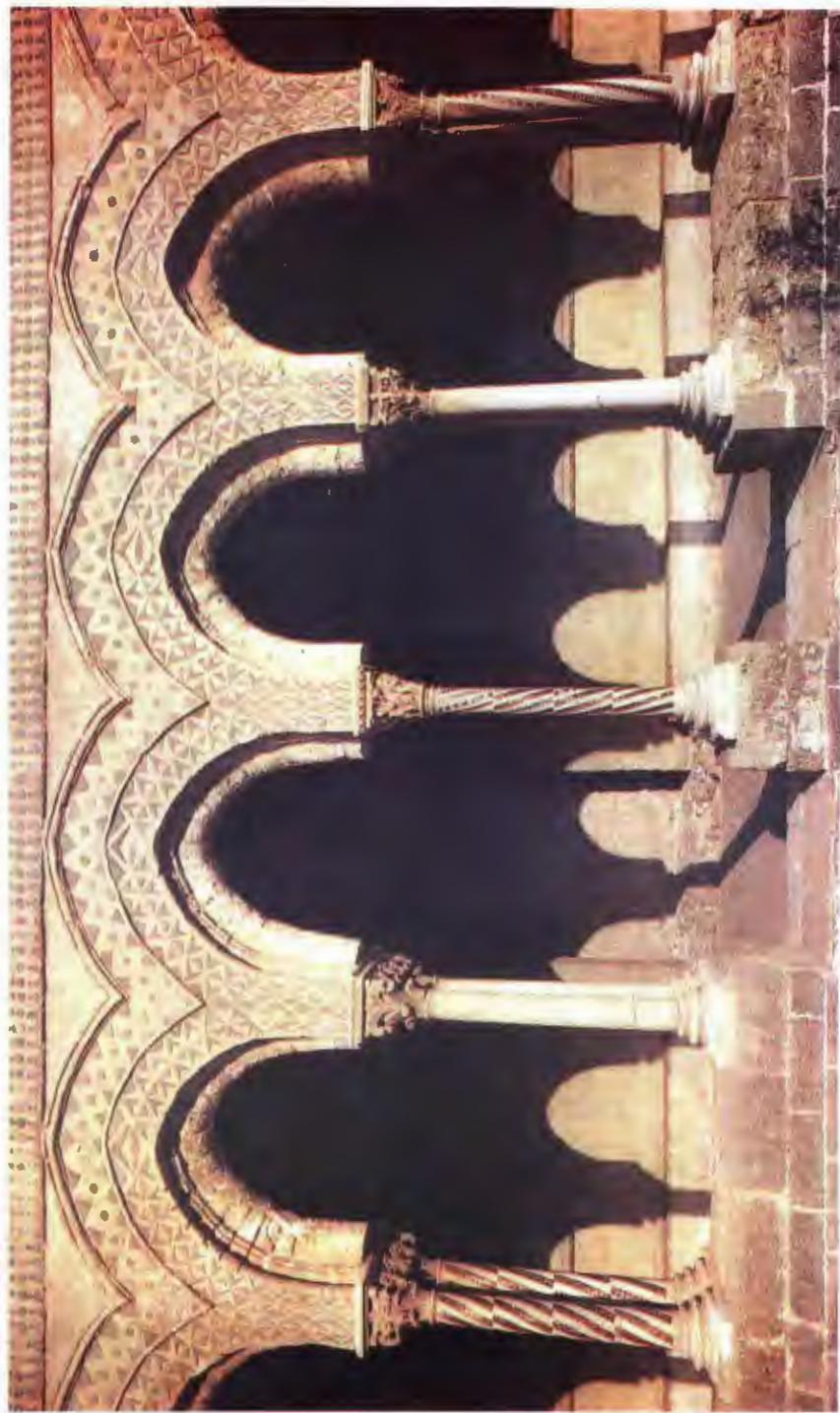




قلعة لواري
- ويشقة -

قلعة اورب مع
احد ابراجها المدجنة



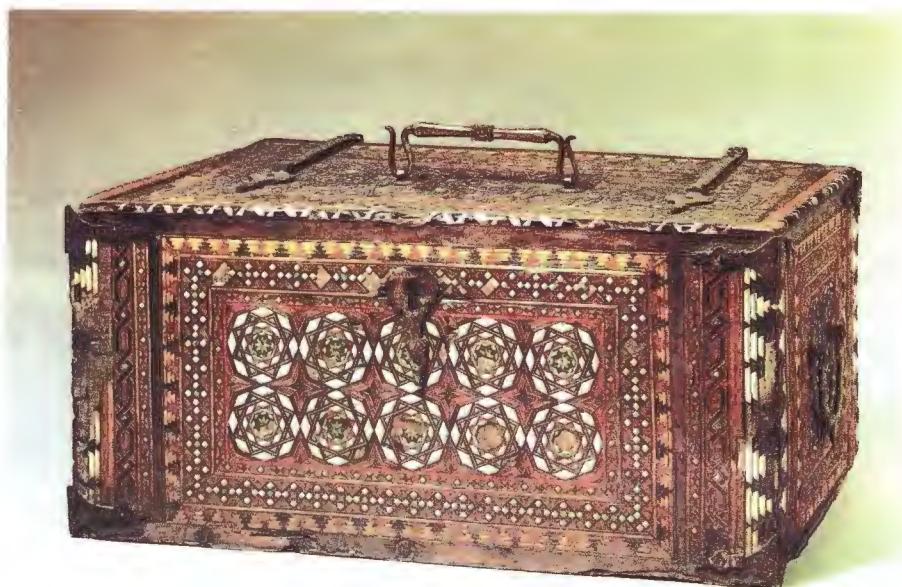


أحد المعالم الأثرية الجميلة ذات الطراز الإسلامي في مدينة بالمر
عاصمة صقلية ، حيث عاش فيها المسلمين ملوك وخاصون سنة



آخر الدا تبلية

جامع الحسن الـ سعـدـيـ



صندوق مصنوع من
الخشب واللماج ويزخرف
جميلة القرن XIV
غرناطة



علبة مصنوعة من اللماج
ومزخرفة وعليها شرائط
من الفضة والذهب / نهاية
القرن XII بغرناطة

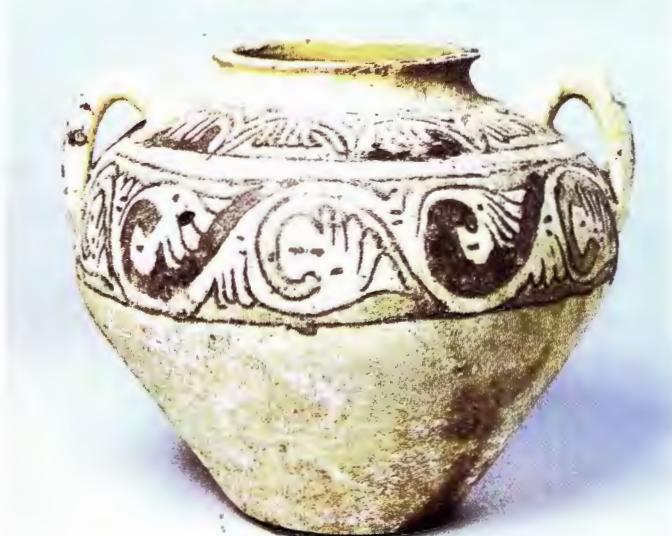


تاج مع قاعدة عمود
معمولتان من المرمر
٩٦٧ - ٩٧٦ / قرطبة





طبق من الخزف
متحف غرب ناطة/القرن
العاشر



جريدة من الخزف/متحف
قرطبة - القرن العاشر



قطع قماش من الحرير مطرزة بالذهب تعود لفترة الخلافة الاموية / القرن العاشر





مجموعة من المُلقيين مع الشيخ جعفر الإسباني
في غرناطة



الشيخ أبو عدنان مع المؤلف



الميدان الكبير - كانت تسمى ساحة الريض في زمن العرب / مدريد

